الجوانية

دراسة فى فكر عثمان أمين



الجوانية

دراسة في فكر عثمان أمين

دكتور

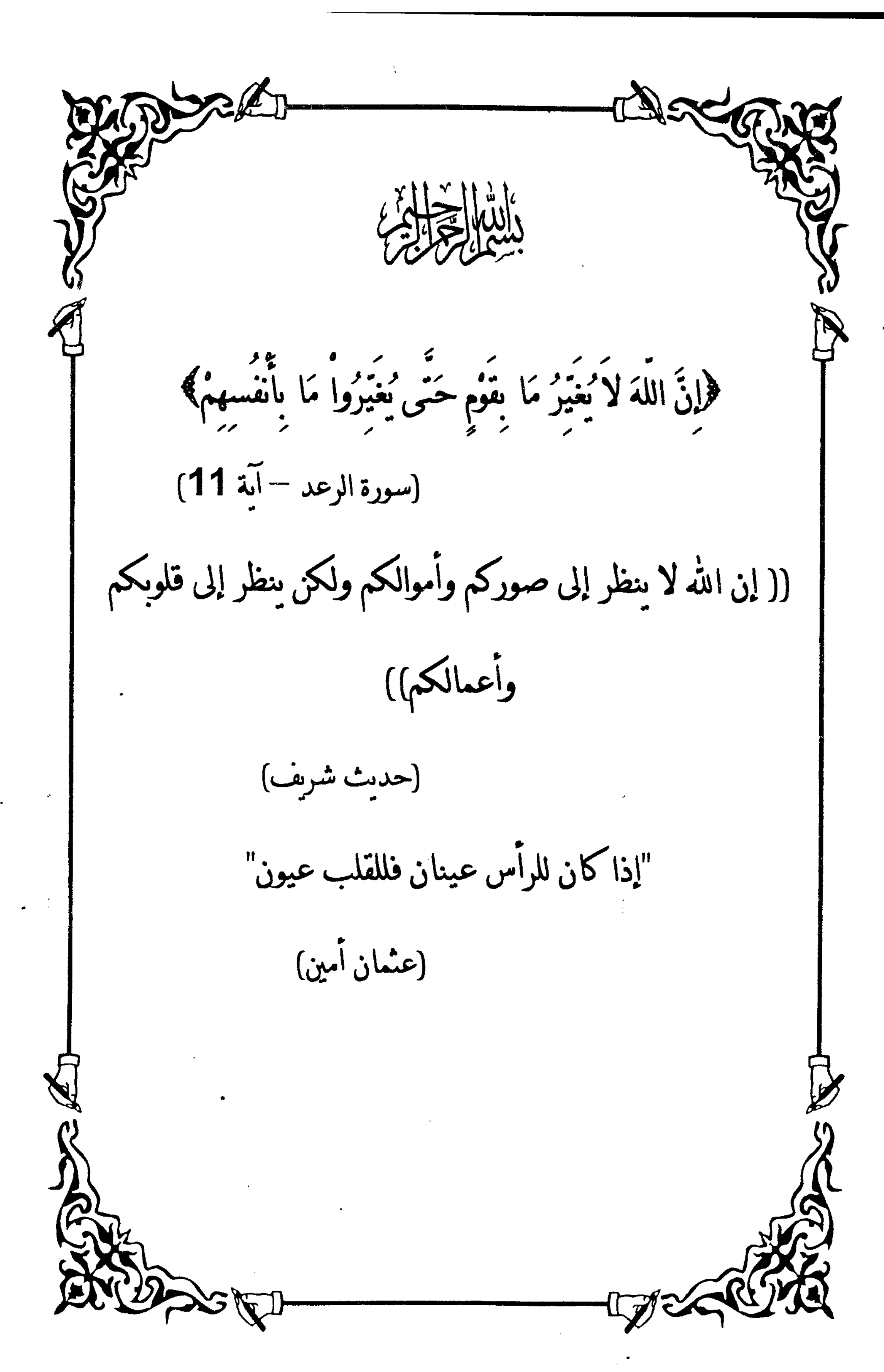
خالد حربي

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

2012



دار الكتب والوثائق القومية
عنوان المصنف: الجوانية دراسة في فكر عثمان أمين.
اسم المؤلف: خالد حربي.
اسم الناشر: المكتب الجامعي الحديث.
رقم الايداع: 2012/1978.
الترقيم الدولي: 978-977-438-271-8.



﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾

(سورة الرعد – آية 11)

((إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم))

(حديث شريف)

"إذا كان للرأس عينان فللقلب عيون"

(عثمان أمين)



مقدمة

عــثمان أمــين فيلــسوف مصرى عربى معاصر ، ولد عام 1908 ، وتوفــى عام 1978 ، وما بين الميلاد والوفاة حياة علمية مليــئة بالــبحث الــشغوف ، والــدرس الدؤوب ، والتأليف الماتع ، والإبداع الأصيل .

درس عــثمان أمين الفكر الفلسفى قديمه وحديثه ، وقدم تآليفه فــيه بأسلوب غاية فى الدقة والعمق والتمكن من اللغة الفلسفية ، تلك التآليف التى شغلت مساحة كبيرة من المكتبة العربية فى زمن حملت رفوفها فيه أعمال الرواد الأوائل أمثال : محمد عبده ، ومحمد إقبال ، وجمــال الــدين الأفغانــى ، ورفاعة الطهطاوى ، ومصطفى عبد الرازق أستاذ عثمان أمين .

قــدم عثمان أمين للفكر العربى المعاصر إنتاجاً فكرياً غزيراً شــمل معظــم مــراحل الفكر الفلسفى المتعارف عليها : اليونانية – الإســلامية (الوســطى) – الحديثة ، فضلاً عن مرحلة مبكرة تخرج دائمــاً مــن هــذا التصنيف الفكرى الفلسفى العالمى ، وهى مرحلة الحــضارة المــصرية القديمة ، تلك التى أبدع عثمان أمين فى بيان فضلها على الحضارات الأخرى .

ومنذ أن تناول عثمان أمين موضوعات تلك المراحل بالدرس ، والتألــيف ، كان يدور فى خلده البحث عن فلسفة جديدة ، **فلــسفة**

تـــوقظ أمــــة على حد قوله . وعلى ذلك ومنذ أوائل سنة 1927 آل علـــى نفـــسه أن يقـــرأ أمهات الكتب الفلسفية باللغة الفرنسية ، فقرأ مـــؤلفات ديكارت ، واسبينوزا ، وليبنتز ، وكانط وأوجست كونت ، وبرجسون ، ثم توقف ولم يستطيع أن يتابع الدرس ، كما يقول .

إذ خُيّل إليه آنذاك أن أكثر هؤلاء الفلاسفة الأعلام قد عاشوا فـــى عـــزلة عـــن الناس ، ولبثوا بعيدين عن مشاغل الحياة . فهذا ديكـــارت شـــيخ الفلسفة الحديثة نراه يغادر وطنه فرنسا ، ليقيم فى حجرة دافئة بقرية من قرى هولندا . وهذا اسبينوزا يعتزل العالم فى صـــومعة الفكـــر ولا يشارك الحياة الاجتماعية فى شئ . وهذا كانط يقضى فى كونجز برج حياة رتيبة ، يخرج من البيت إلى الجامعة ، ويعود من الجامعة إلى البيت .

وقـــرأ عـــثمان أمـــين فى سير أكثرهم أنهم قد أنصرفوا عن الزواج وابتعدوا عن حياة الأسرة . وبدا له على وجه الخصوص أنه لا يكـــاد يجد عندهم الفلسفة التى ترضيه وكان ذلك فى مرحلة الشك فـــى الفكر الغربى ، أما فى مرحلة الإعجاب به وتقدير رواده ، أخذ عـــثمان أمـــين يـــبحث فـــى الفكر الغربى جنبا إلى جنب مع الفكر الإســـلامى عـــن إجابات على الأسئلة الكثيرة التى كانت تتردد فى خاطـــره. والسؤال الأول الذى كان يشغله كثيراً ويؤرقه أحياناً هو : ألا توجد فلسفة حياة تجاوز الحدود الضيقة ، حدود المذاهب المغلقة

التـــى تـــدرّس فى الكتب والجامعات ، فيمتد أثرها إلى الشعب وإلى الجماهيـــر ؟ وبعبارة أخرى : ألا توجد فلسفة تضع لنا مبادئ عاملة لتـــربية جديـــة ، فـــتوقظ الشعور الوطنى فى أبناء الأمة ، وتجعلهم يأبون حياة الضيم والمذلة ، ويحققون حياة الحرية والكرامة ؟.

وفـــى سبيل الاهتداء إلى إجابات على هذه التساؤلات ، أمتد فكر عثمان أمين عبر تاريخ الفكر الفلسفى ، لينتهى إلينا قائلاً :

> **المحـــاولات الفلـــسفية التـــى أقدمها اليوم إلى الجمهور الفلسفى فى بلاد الشرق العربى قد تناولت موضوعات مختلفة ، ومثلت اتجاهات متنوعة ، وامتدت إلى فترات متباعدة . ولكنى أســـتطيع أن أقول إنها جميعاً ، على الرغم ما بينها من تفاوت ظاهر ، قد ألـــف بيـــنها إحساس واحد ، وإلهام واحـــد ، وغـــرض واحد : الابتهاج بطلـــب المعـــرفة والسعى إلى سبيل الحق ، والاتجاه إلى قيم الروح. إنها إذن "الجوانية" .**

فما الجوانية ؟

ما الأسس والمبادئ التى قامت عليها فى كتابات عثمان أمين؟

ما منابعها ؟

ماذا تطلب ؟

ما الأهداف التى ترنو إلى تحقيقها ؟

هل لها سمات تميزها عن غيرها من الفلسفات المعاصرة ؟

تــساؤلات منهجــية وجوهــرية تحاول هذه الدراسة الإجابة عليها.

الفصل الأول

موجز سيرة عثمان أمين وعصره

ولــد عثمان أمين فى قرية "مزغونة" بمحافظة الجيزة ، ونشأ فـــى أسرة ريفية تعمل بالزراعة ، وكان والده محمد أمين حسين إلى جانـــب اشـــتغاله بالزراعة يعمل بالتجارة ، ويحفظ القرآن ، ويقرأ بعض الكتب الدينية.

وســـط هـــذه البيـــئة وهـــذا الجو نشأ عثمان أمين نشأة دينية محافظـــة ، فحفـــظ قـــدراً من القرآن الكريم على والده ، ثم التحق بمدرســـة صغيرة تعلم فيها مبادئ النحو والحساب والجغرافية واللغة الإنجليـــزية ، ثم انتقل إلى مدرسة العياط الابتدائية ، فأهلته بعد إتمام الدراســـة الابتدائية للالتحاق بالمدرسة السعيدية الثانوية بالقاهرة التى بهـــا تفتحت مواهبه وحصل على شهادة الثانوية ليلتحق بكلية الآداب جامعـــة فؤاد الأول (القاهرة حالياً) ، ويختار من بين أقسامها ، قسم الدراسات الفلسفية ، وبه قرأ أمهات الكتب الفلسفية باللغة الفرنسية ، وتوثقت علاقته بالشيخ مصطفى عبد الرازق الذى وجهه إلى دراسة مقـــالات الفلاســـفة والمتكلمـــين الإسلاميين ، فقرأ جانباً من أعمال الفارابـــى وابن سينا والغزالى وابن رشد ، وفى هذه الفترة بدأ نشر سلـــسلة مـــن المقالات فى مجلة السياسة الأسبوعية التى كان يرأس تحريرها الدكتور محمد حسين هيكل تحت عنوان "سوانح الشباب".

فـــى سنة 1930 حصل على الليسانس من جامعة القاهرة ، وأرســـلته كلية الآداب إلى باريس فى بعثة دراسية لدراسة الدكتوراه

بجامعة السربون ، وقضى هناك سبع سنوات نهل خلالها من موارد البحث والدرس ما وسعه الجهد ، فقرأ فى الأدب والفن والعلم والفلسفة ، وتابع كبار الأساتذة ، وجوّد لغته الفرنسية إلى جانب الإنجليزية بالإضافة إلى قدر غير قليل من اللغتين اليونانية واللاتينية ، واستطاع خلال هذه الفترة أن يحقق كتاب "إحصاء العلوم" الذى يُعد من أهم مؤلفات المعلم الثانى أبى نصر الفارابى.

توج عثمان أمين جهده العلمى فى السربون بحصوله على الدكتوراه برسالة نفسية فى الإمام محمد عبده الذى كان به معجباً وعدّه واحداً من رسل الوعى الإنسانى ، ورأى ضرورة نشر وإذاعة مذهبه الذى يمثل –فى رأيه– أجمل ما فى الفكر الإسلامى الحديث ، وأبقى ما فى الروح العربية التجديدية.

بعد عودته من السربون شغل عثمان أمين وظيفة مدرس للفلسفة بكلية الآداب ، ثم تتدرج فى الترقى حتى أصبح أستاذاً ورئيساً لقسم الفلسفة بجامعة القاهرة تلك التى لم تستأثر بدروسه وندواته ومحاضراته ، بل انتدبته كثير من الجامعات ، فعمل أستاذاً زائراً فى السودان وليبيا وباكستان ، وحاضر فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة وجامعات الأزهر وعين شمس والإسكندرية ، ومعهد الدراسات الإسلامية ، ومعهد الدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية .

فـــى سنة 1974 انتخب عثمان أمين عضواً فى مجمع اللغة العـــربية ، ولـــم يقتصر تقدير المؤسسات العلمية لعثمان أمين على مـــصر ، بل انتخب عضو شرف فى الجمعية الفرنسية ، وتحت اسم "مـــصر" خُـــصص جـــناح فى مكتبة المؤلفات والبحوث العلمية عن ديكـــارت لإنـــتاج عثمان أمين ، وفى كيمبردج وهارفارد وتكساس وفينيـــسيا ولاهور وجاكرتا كان لعثمان أمين مشاركة فعالة فى عدد كبيـــر مـــن المؤتمرات والندوات وحلقات البحث العلمى. وفى كتابه "قطـــوف مـــن الأدب العربـــى المعاصـــر" المنشور سنة 1955 ، خصص لُه المستشرق الفرنسى المعروف جاك بيرك مكاناً للتعريف بأعمالـــه ، ووصـــفه إبـــراهيم مدكـــور بأنه من بناة الفكر الفلسفى المـــصرى المعاصـــر ، زوّد المكتـــبة العربية بزاد وفير من الكتب والبحوث ، وكوّن جيلاً مرموقاً من الباحثين والدارسين.

ولقد تميزت الفترة الممتدة بين أواخر العشرينات والخمسينات مـــن القرن العشرين ببداية مرحلة جديدة من التفكير فى مصر ، إذا وُضع الموروث الثقافى للأمة موضع نظر وتقويم وفقاً لثقافة العصر ومنظور الحركات الفكرية المختلفة التى ظهرت من إسلامية تجديدية إلى ليبرالية وعلمانية وقومية عربية ، وتبارت الحركات الفكرية فى الواقع الثقافى والفكرى إلى الدرجة التى جعلت البعض يرمى بعض رموز الحركات الفكرية بالكفر والزندقة ، مثلما حدث مع طه حسين

علـــى كتابه "فى الشعر الجاهلى" والشيخ مصطفى عبد الرازق على كـــتابه "الإســـلام وأصول الحكم" ، وخالد محمد خالد على كتابه "من هـــنا نـــبدأ". وغيرهم من المفكرين ، الأمر الذى شكل بداية مرحلة جديدة من التفكير فى مصر ، وذلك مع مجيئ ثورة يوليو 1953 ، وتبنـــى الـــسلطة الجديدة للاتجاه القومى الإسلامى التقدمى ، وإتاحة التعلـــيم للجمـــيع ، وإقامـــة الجـــسور الرابطة بين الثقافتين العربية والغربية ، وإرسال البعثات العلمية إلى الغرب ، فظهرت فى مصر والعالم العربى تيارات فلسفية غربية كالوجودية والوضعية المنطقية والماركـــسية والبـــنوية .. وغيرها التى تبناها البعض ، بينما زواج الـــبعض الآخـــر بيـــنها وبـــين التراث الفلسفى العربى الإسلامى ، فظهـــرت حركة إحياء التراث الفلسفى العربى الإسلامى القديم الذى أثر فى الغرب ، لاسيما أعمال الكندى والفارابى ، وابن سينا ، وابن رشـــد .. وغيـــرهم ، الأمر الذى أسهم فى نشأة وتطور الاتجاهات الفلسفية المعاصرة فى مصر والعالم العربى .

وفـــى ظـــل تلـــك الأجـــواء مـــن تطور الاتجاهات الفلسفية المعاصـــرة ، نـــشأت فلـــسفة عثمان أمين كفلسفة جديدة تزواج بين التراث الإسلامى والفلسفة الغربية ، وخاصة الروحية منها ، فجاءت الفلسفة (الجوانية).

الفصل الثانى

المقصود بالجوانية



إذا سُئل عثمان أمين عن الجوانية ، ما هى ، وما مفهومها ؟ يجيب[1]: إنها عندى "فلسفة" وخير من هذا "طريقة فى التفلسف" ، ولا أقول إنها "مذهب " لأن المذهب شأنه أن يكون مغلقاً قد رُسمت حدوده مرة واحدة ، وحُبست تأملاته فى نطاق معين ، بل هى تفلسف مفتوح على النفس وعلى الدنيا ، متعرض لنفحات السماء فى كل لحظة ، وطريق مبسوط أمام الوعى ينتظر "السالكين" إلى يوم الدين.

فالجوانية إذن فلسفة تحاول أن ترى الأشخاص والأشياء رؤية روحية ، بمعنى أن تنظر إلى "المخبر" ولا تقف عند "المظهر" ، وأن تلتمس "الباطن" دون أن تقنع "بالظاهر" وأن تبحث عن "الداخل" بعد ملاحظة "الخارج" ، وأن تلتفت دائماً إلى "المعنى" وإلى "الكيف" وإلى "القيمة" وإلى "الماهية" وإلى "الروح" من وراء "اللفظ" ، و"الكم" ، و "المشاهدة" و "العرض" و "العيان".

والطريق إلى ذلك كما يرى عثمان أمين ، هى تقديم "الذات" على "الموضوع" ، والفكر على الوجود ، والإنسان على الأشياء ، و "الرؤية" على "المعاينة" والتمييز بين الداخل والخارج ، وبين الكيف والكم ، وبين بصر العقل وبصر العين . وذلك ما عبر عنه الإمام

---

(1) عثمان أمين ، الجوانية أصول عقيدة وفلسفة ثورة ، طبعة 1964، ص 113.

علــى – رضـــى الله عـــنه – فى قوله "ليست الرؤية كالمعاينة مع الإبصار : فقد تكذّب العيون أهلها ، ولا يغش العقل من استنصحه". وقــد شـــرح الإمـــام محمـــد عبده هذه العبارة فى تعليقه على "نهج الــبلاغة" فقال : " الرؤية : إعمال العقل فى طلب الصواب ، وهى أهــدى إلـــيه من المعاينة بالبصر : فإن البصر قد يكذّب صاحبه ، فيريه العظيم البعيد صغيراً ، وقد يريه المستقيم معوجاً كما فى الماء . أمـــا العقــل فلا يغش من طلب نصيحته وليس العلن قاصراً على شهود المحسوس[1].

يتـــضح مـــن ذلـــك أن الجوانية عند عثمان أمين هى طريقة روحـــية تحـــاول سبر أغوار الباطن ، وعدم الاكتفاء بالوقوف عند الظاهر ، وألا تقف عند حدود الكم والمشاهدة والعرض والعيان ، بل تـــنطلق مـــن هذه المعانى الظاهرة إلى المعنى ، والكيف ، والقيمة والماهية ، أو بالأحرى إلى الروح . وهنا يأتى السؤال : ماذا تطلب الجوانية ؟.

يجـــيب عـــثمان أمين بأن[2]: الجوانية إذا تطلب الحقيقة فيما وراء الواقـــع لا تـــزعم لنفسها القدرة أو الرغبة فى امتلاكها ، لأن الحقـــيقة متـــى امتلكـــناها ، أو خـــيل إليـــنا أننا امتلكناها ، فقدت

---

(1) عثمان أمين ، الجوانية أصول عقيدة وفلسفة ثورة ، ص 121 .

(2) المصدر نفسه ، ص 135 .

مــشروعيتها فـــى أن تكون حقيقة ، أى أن تكون هذه القوة الروحية التـــى تـــستحث الإنـــسان علـــى الابـــتكار المتجدد الواعى والسعى الموصول إلى ما ينبغى أن يكون .

علـــى أن الحقـــيقة إذا تحـــددت بحدود برانية أصبحت بذلك "واقعة" وجاز لها أن تكون "موقفاً" متجمداً فى سلسلة من الواقعات ، يحتاج إلى من يدافع عنه وينتصر له . الحقيقة لا تفتقر إلى دفاع من الخارج : إن آيتها وبرهانها كامنان فيها ، وإنها "فكرة" تقوم فى لب الوجـــود الواقـــع ، وهى أشبه بأن تكون واقعة مثالية : ومتى لاحت للمـــرء على هذا النحو استطاع أن يستشف ، من ثنايا واقعه المثالى هـــذا ، غايـــة أخرى أو مثلاً أعلى جديداً ، يصبح –بدوره– مناطاً لسعى الإنسان الجوانى .

لكن إذا حاول الإنسان السعى نحو هذا المسعى الجوانى الذى يدعـــو إليه عثمان أمين ، أفلا يوجد نوع من المعرفة ، أو نوع من الأدوات يساعد الإنسان فى مسعاه هذا ؟

يجـــيب عـــثمان أمـــين بـــأن[1]: حياتنا الجوانية كالسيمفونية الموسيقية ، فكما أن الإنسان لا يستطيع أن يفهم سيمفونية من مجرد الحـــديث عـــنها ، بل يلزم أن يتعاطف معها ، فكذلك لا نستطيع أن نسبر أغوار الحياة الجوانية ، مهما استعنا بالأدوات العلمية ، إلا بأن

---

(1) راجع ، المصدر نفسه ، ص 124-125 .

نحـــياها بأنفـــسنا وأن نـــتحمل مـــسئولية معاناتها : فكما أن أحداً لا يستطيع أن يموت لنا فإن أحداً لا يستطيع أن يحيا أو أن يفكر لنا كما يقـــول هيدجر ، وهذا التعاطف العقلى أو الجهد "الجوانى" هو عندنا ضـــرورى لكـــل بحث قويم ولكل ثقافة عميقة ولكل مسعى صادق ، وبدونه يمتنع على الباحث أياً كانت قدرته أن ينفذ إلى الشخصية التى يـــريد أن يتعـــرض إليها أو أن يفهم الموضوع الذى يريد أن يعالجه فهماً كاملاً .

فالجوانـــية فلسفة تستند على تزكية الوعى الإنسانى وممارسة الحرية النفسية ، وتسعى إلى تعميق فهمنا للمقاصد والمعانى والقيم . وهـــى بهذا الاعتبار تمارس الوظيفة الفلسفية على الأصالة : التماس اللـــب والمـــبدأ والكيف والحق . إنها لا تقيس حياة الإنسان الفكرية والمعاملـــة بالمقاييس البرانية ، مقاييس الكم التى تقاس بها المادة ، كمـــا أنها لا تقنع بمناهج التحليل والحساب والإحصاء : إن هذه إن يسّرت لنا أن نقف على الكم والمقدار ، فإنها تعوقنا دون ريب على اســـتكناه الفكـــر وســـبر أغوار الكيف ، بل إن "العنصر النفسانى" يستعصى دائماً على التحليل ، كما بين لنا ياسبرز وأندريه جيد[1] من الفلاسفة الغربيين .

إن أقـــدم تعـــريف للفلـــسفة يعد فى نظر عثمان أمين تعريفاً

---

(1) راجع ، المصدر نفسه ، ص 123-124 .

جوانــياً ، وهــو التعــريف الــذى قال به هيراقليطس ووصف فيه الفيلسوف بالباحث عن طبيعة الأشياء أى حقيقتها المستورة وداخليتها الكامنة التى لا تبدو غالباً للنظرة العابرة ، وقد جال هذا المعنى أيضاً فــى فكــر ابن سينا حين قال فى "الشفاء" إن الغرض من الفلسفة أن تقف على حقائق الأشياء .

وينظــر عــثمان أمين إلى الفلاسفة الروحيين كهداة حقيقيين للإنــسانية ، يدعونــنا دائماً إلى الاعتقاد بأن للكون إلهاً لا متناهياً ، واســع العلــم والقــدرة والــرحمة ، وأن العالم لا يتحرك مصادفة واعتباطاً ، بل يسير كل شيئ فيه إلى أحسن مما كان ، ولا يمكن أن تكون خاتمة الدراما الإنسانية إلا استكمال السعادة مع تحقيق السلام. وبهذه النظريات المشرقة المتفائلة يمسح الفلاسفة على جراح نفوسنا ، ويهدئون من ثائرة خواطرنا وكأنهم يدعوننا إلى أن نمد البصر إلى الــسماء ذات النجوم ، فهنالك فوق ظلام القهر والشر والمادة تتلألأ معانــى الحــرية والحق والكمال ، وتلك المعانى هى النجوم اللوامع التى تضيئ للإنسانية حياتها[1].

---

(1) راجع ، عثمان أمين ، محاولات فلسفية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة 1952 ، ص 133 ، 137.

الفصل الثالث

تأصيل معنى الجوانية فى الفكر الإسلامى



1- القرآن والسنة :

يـــذهب عـــثمان أمـــين إلى أن الصورة التى يرسمها القرآن والحـــديث لحياة الإنسان على الأرض صورة دقيقة رائعة ، صورة مثالـــية وواقعـــية معـــاً . إنها صورة حياة ملؤها الجهود الموصولة للإصلاح الداخلى ، أى: الإصلاح الروحى ، والإصلاح الخارجى ، أى الإصـــلاح المـــادى . وقوامها العمل لتزكية وعى الإنسان لذاته وصلاته بغيره وتحقيق رسالته على الأرض . وإصلاح النفس معناه : إصلاح العقيدة والتغيير الجوانى أصعب جداً من التغيير البرّانى ، لأن الأول منـــصب علـــى تغييـــر الأخلاق والعقليات ، فى حين أن الثانـــى ينـــصب علـــى تغيير المراسم والأشكال والنظم الخارجية ، اجتماعية كانت أو سياسية أو اقتصادية.

والقـــرآن الكريم حافل بالآيات البينات المعبرة عن هذا النظر الجوانـــى النافذ إلى جوهر الأشياء والأشخاص ، والفرق الدقيق بين وجهـــين متعارضـــين فى الفهم والسلوك : نراه يتحدث عن المعانى الأساســـية فـــى العقـــيدة الإســـلامية ، فينبغى على بعض المسلمين الاهـــتمام ببـــرانيتهم المتمـــثلة فى وقوفهم فى الفهم عند الأعراض الخارجـــية والمشاهد المحسوسة ، ومن ثم ظهورهم بمظاهر الإيمان والبر والتقوى وأداء الفرائض ، وينبههم إلى أن هداية الدين القويم لا تـــتحقق إلا باستشعار معانيه الصحيحة العميقة . فقوله تعالى ﴿ لَّيْسَ

البـــرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّـــهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ.. ﴾[1] وقوله سبحانه: ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْـــرٌ مِّـــن صَـــدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ﴾[2] يفيد إنكار الفهم البرانى للبر والـــصدقة ، وتأكـــيد معناها الجوانى الأصيل . وقس على ذلك قوله جـــلّ وعلى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّـــا يَـــدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾[3] ، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ ﴾[4].

إن آيـــات القـــرآن الكـــريم ظهرت لتخاطب قوم الرسول ﷺ بلـــسانهم ، وهـــو لسان عربى مبين ، ﴿قُرآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾[5] . وهذا يقتضى أن يخاطبهم الرسول ﷺ بلسانهم ، أى بالأســـلوب العربـــى الذى يفهمونه . وتتركز أساليب المعرفة فى صـــنفين ، الأول : وهـــو الأســـلوب الغيبى بمستوياته المختلفة من الوحـــى والإلهام والكهانة والسحر والشعر ، وهذا ما يمكن أن نطلق علـــيه الأســـلوب الجوانـــى . والأسلوب الآخر هو الأسلوب الفعلى بمخـــتلف مـــستوياته من البصر والنظر والتفكير والعقل ، وهذا ما

---

(1) سورة البقرة ، آية 177 .

(2) سورة البقرة ، آية 263.

(3) سورة الحجرات ، آية 14.

(4) سورة الحج ، آية 37 .

(5) سورة الزمر ، آية 28 .

يمكن أن نطلق عليه الأسلوب البرانى.

وقد عبر النبى العربى ﷺ عن هذا المعنى العميق فى كثير من أحاديثه ، فقال : " **إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم** "[1]. ، فالتقابل هنا واضح صريح بين المظهر والمخبر ، وبين العرض والجوهر . وقوله ﷺ: " **كم من قائم حظه من صلاته التعب والنصب** " ، وقوله : " **من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة إلى أن يدع طعامه وشرابه**"[2] ، وقوله : " **الصوم جنة**" إنما يفيد أن الصلاة على حقيقتها خليقة أن تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، وأن الصوم الصحيح هو الإمساك عن إيذاء الناس بالقول أو الفعل[3].

هذا فضلاً عن الحديث المنسوب إلى النبى ﷺ ، والذى أشار لفظاً إلى الجوانية ، حيث : "روى عن الحارس الهمدانى ، عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه ، قال لى رسول الله ﷺ : **يا على ، ما من عبد إلا وله جوانى وبرانى ، بمعنى سريرة وعلانية ، فمن أصلح جوانيه أصلح الله برانيه ، ومن أفسد جوانيه أفسد الله برانيه . وما من أحد إلا وله صيت فى أهل السماء ، فإذا أحسن وضع الله له ذلك فى الأرض ، وإذا ساء صيته فى السماء وضع له**

---

(1) صحيح مسلم ، كتاب اللباس .

(2) صحيح البخارى ، كتاب الصوم .

(3) عثمان أمين ، الجوانية ، ص 120 .

ذلك فى الأرض "[1] .

ووضـــح أن معنـــى الكلمتين فى الحديث المروى عن الإمام علـــى ، يـــدل علـــى معنى الباطن والظاهر ، والداخل والخارج ، والمستتر والمعلن فى حياة كل إنسان .

ومـــن روائـــع التمثيل للنظر الجوانى قول النبى – عليه الصلاة والـــسلام– فـــى استبعاد الفهم البرانى لمعنى الحرية الإنسانية ، والتنبيه إلـــى ضرورة تقييدها إذا كان فى إطلاقها توقع الإضرار بالغير : "**إن قـــوما ركـــبوا فـــى سفينة فاقتسموا، مضار لكل منهم موضع ، فنقر أحـــدهم موضعه بفأسه، فقالوا له: ما تصنع قال: هو مكانى أصنع فيه ما شئت، فإن أخذوا على يده نجا ونجوا، وإن تركوه هلك وهلكوا**"[2].

ويـــؤكد عثمان أمين على أن المثل الأعلى للأخلاق الإسلامية هـــو فـــى آخـــر الأمر الإرادة الجازمة التى تقتضى مجاهدة النفس والـــسيطرة عليها وقمع شهواتها ، قال تعالى : ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى**﴾[3] .

وقـــال : ﴿**وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الْأَوْفَى**﴾[4] . وقال جلّ وعلى : ﴿**لَهُمْ دَارُ**

---

(1) عثمان أمين ، الجوانية ، ص 167 .

(2) عثمان أمين ، المصدر نفسه ، ص 114 .

(3) سورة النازعات ، الآيات 40-41.

(4) سورة النجم ، الآيات 39 ، 40 ، 41 .

السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[1] . وقال النبى ﷺ : **"لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تابعاً لما جئت به".**

وتعريف النبى للمجاهد والمهاجر تعريف يشير إلى أهمية العنصر النفسى الجوانى فى تحقيق المعانى الدينية تحقيقاً صحيحاً ، قال ﷺ : **"المجاهد من جاهد نفسه"** وقال : **"المهاجر من هجر ما نهى الله عنه"**. ولا ريب أن جهاد النفس – وهو جهاد جوانى- أصعب من جهاد الغير ، ولذلك سماه الرسول "الجهاد الأكبر " : لأنه يقتضى عملاً دائباً وجهداً متواصلاً لمغالبة هوى النفس .

والقرآن يعتد أكبر اعتداد بالنية التى صدرت عنها الأفعال ، ويلح على الإخلاص المصاحب لإقامة الشعائر ، ويرى أن فعل الإنسان إذا ساورته شبهة باعث من بواعث العُجب أو الأنانية أو الرياء تجرد عن الحقيقة وأصبح مظهراً أو زيفاً ، قال تعالى :**﴿إِنَّ اللّـهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾** [2]. وقال تعالى : **﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾**[3] .

والنبى ﷺ دائم الذكر والتنبيه إلى أن القيمة العليا إنما تكون للعنصر الجوانى فى الأفعال ، وهو العنصر المتمثل فى الإيمان

---

(1) سورة الأنعام ، آية 127.

(2) سورة الرعد ، آية 11 .

(3) سورة الأحزاب ، آية 5 .

والــصدق ، والإخـــلاص ، يقول النبى ﷺ : " **إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرئ ما نوى ...**"[1].

وإن ضـــمير الإنسان ليشهد عليه وإن يكن موقفه أمام الناس ســـليماً . أما الرياء وإرضاء الناس فيسميه النبى بالشرك الأصغر .. فالقـــصد الحقيقـــى والنـــية الجوانية هما المحك الصادق للحكم على الأشخاص والأشياء ، وهما معيار القيمة فى الأقوال والأفعال . قال تعالـــى: **﴿لَــن يَــنَالَ اللَّـــهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾**[2]. وقال النبى ﷺ : " **إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكـــن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**" . وفى ذلك وغيره مـــن الكتاب والحـــديث مـــصداق لـــذلك المقـــياس الروحى الذى يتعارض مـــع المقاييس الحسيـــة القائمة على الكم والمقدار[3].

والأخلاق الإسلامية باتخاذها من رقابة الضمير أساساً لها قد جـــاوزت ملابسات الزمان والمكان ، وسمت إلى منزلة أضحت فيها تـــشريعاً إنـــسانياً ورحمة شاملة لأولئك الذين فقدوا أساس الهداية ، وضـــيقوا أســـباب الوجود ، فكانت حياتهم حياة برانية يعيشون على خلاف مع أنفسهم.

---

(1) صحيح البخارى كتاب النية .

(2) سورة الحج ، آية 37 .

(3) راجع عثمان أمين ، الجوانية ، ص 198-199.

2- الصحابة والتابعين والفقهاء:

لم يكتف عثمان أمين باستلهام واستشفاف معنى "الجوانية" من القــرآن والــسنة ، بــل تراه يبحث عنه ، ويفرق بين "الجوانية" و "البرانية" لدى الصحابة والتابعين ، والفقهاء ، والطوائف الإسلامية ، والمفكــرين الإسلاميين بصفة عامة . ويمكن الوقوف على مؤيدات ذلك فيما يلى :

شهد شاهد عند عمر بن الخطاب – رضى الله عنه– فقال له عمــر : "اتينى بمن يعرفك ، فأتاه برجل فأثنى عليه خيراً ، فقال له عمر : أ أنت جاره الأدنى الذى يعرف مدخله ومخرجه ؟ قال : لا . قال : " فكنت رفيقه فى السفر الذى يستدل به على مكارم الأخلاق ؟ قــال : لا ، قال : فعاملته بالدينار والدرهم ؟ قال : لا ، قال : أظنك رأيــته قائمــاً فــى المسجد يهمهم بالقرآن ، يخفض رأسه طوراً ، ويــرفعه آخــر. قال: نعم ، قال عمر: "اذهب فلست تعرفه ، ثم قال للشاهد : اذهب فأتنى بمن يعرفك"[1].

ومغــزى هذه الواقعة جلى لا خفاء فيه : إن هناك فرقاً كبيراً بين البرانى والجوانى لأن حركات النفس شئ غير حركات الجوارح ، فالوقــوف فــى المعرفة عند ملاحظة الظاهر مرادف للجهل ومؤد إلى الخطأ فى كثير من الأحيان .

---

(1) عثمان أمين ، المصدر نفسه ، ص 116-117.

وصـــور أخرى للبرانية المتمثلة فى التصرفات الآلية والتقييد بالحـــرفية "مـــرض صديق لحامد بن العباس ، فبعث ابنه إليه يعوده وأوصـــاه : يـــا بنـــى إذا دخلـــت فاجلس فى أرفع المواضع ، وقل للمريض : ما تشكو؟ . فإذا قال كذا وكذا ، فقل له " سليم إن شاء الله ، ثم سله : من يعودك من الأطباء ؟ فإذا قال : فلان ، فقل ميمون ، ثـــم سله : ما غذاؤك ؟ فإذا قال : كذا وكذا ، فقل : طعام محمود . فـــذهب ، ولما دخل على العليل رأى بين يديه منارة ، فجلس عليها لارتفاعها ، فوقعت على صدر العليل ، فأوجعته ، ثم قال للمريض : مـــا تشكو ؟ فقال : أشكو علة الموت ، فقال : سليم إن شاء الله ، ثم سأله : ومن يجيئك من الأطباء ؟ قال : ملك الموت . فقال : مبارك ميمون ، فما غذاؤك ؟ قال : سم الموت ، قال طعام طيب محمود[1].

واضح أن مثل هذه الصورة "برانية صارخة" تأتى من تمسك صـــاحبها بالحرفية ، وعدم الخروج عن النص ، مهما ترأى له من تغيـــر فى الموقف ، وتلك صورة برانية تشير وتؤكد إلى أن نقيضها لابد وأن يكون "جوانية" .

ويبـــين إمـــام التابعـــين الحـــسن البصرى أن حقيقة الإيمان (جوانـــية) ، ولا يـــصيبها المـــرء حتى يفتش وينقى ما بداخله ، فلا يعيب الناس بعيب هو فيه ، "فيا بن آدم إنك لا تصيب حقيقة الإيمان

(1) المصدر نفسه ، ص 116.

حتـــى لا تعيب الناس بعيب هو فيك ، وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب مـــن نفسك فتصلحه ، فإذا فعلت ذلك لم تصلح عيباً إلا وجدت عيباً آخر لم تصلحه ، فإذا فعلت ذلك كان شغلك فى خاصة نفسك[1] .

ويظهر معنى "الجوانية" كثيراً فى نصائح البصرى ، وخاصة المـــتعلقة منها بالقلوب والأنفس ، ومنها قوله[2]: حادثوا هذه القلوب فإنها سريعة الدثور ، واقدعوا هذه الأنفس فإنها طلعة ، وإنها تنازع إلـــى شـــر غايـــة ، وإنكـــم إن لم تقاربوها لم تبق من أعمالكم شيئاً فتصبروا وتشددوا فإنما هى ليال تعد ، وإنما أنتم ركب وقوف يوشك أن يدعـــى أحدكم فيجيب ولا يلتفت ، فانقلبوا بصالح ما بحضرتكم ، إن هـــذا الحق أجهد الناس وحال بينهم وبين شهواتهم ، وإنما صبر علـــى هـــذا الحق من عرف فضله ورجا عاقبته . وقال: إن النفس أمارة بالسوء ، فإن عصتك فى الطاعة فاعصها أنت فى المعصية .

ويروى عن الإمام أبى حنيفة –رضى الله عنه– أنه كان يوماً فى حلقة الدرس بين تلاميذه ، وكان من عادته أن يجلس بينهم جلسة "مـــريحة" باسطاً رجليه ، لأنه لم يكن يستطيع أن يثنيهما من مرض أو مـــن إعياء ، فدخل عليه فى درسه ذات يوم رجل مهيب الطلعة ،

---

(1) خالـــد حربـــى ، شـــهيد الخوف الإلهى ، الحسن البصرى ، ط الثانية ، دار الوفاء ، الإسكندرية 2006 ، ص 64.

(2) المرجع نفسه ، ص 47.

أبيض اللحية ، كبير القامة ، فضم أبو حنيفة رجليه حين وقع بصره علـــيه ، وواصـــل درســـه لتلاميذه – وكان الدرس فى موعد صلاة الـــصبح . فما كان من الشيخ الوقور إلا أن قاطع أبا حنيفة سائلاً : " ولكـــن ما العمل إذا طلعت الشمس قبل الفجر" ؟ . فكان جواب أبى حنيفة جواباً جوانياً حاسماً ، إذ قال : " العمل أبا حنيفة يبسط رجليه ويحمد الله"! ودلالة هذا الجواب واضحة : فإن أبا حنيفة حين عرف حقـــيقة الـــرجل ، أى حين أطلع على جوانيه من سؤاله ، لم يخدع ببرانيه ، فأعفى نفسه من احترامه(1).

إن مثل هذه الصورة إنما توضع بجلاء أن الجوانية تبرز عدم الانخداع بالمظهر الخارجى ، وأن الحكم على الإنسان لابد وأن ينبع من محاولة التعرف عما يدور بداخله أو كما قال عمر بن الخطاب : تكلم حتى أعرفك .

(1) عثمان أمين ، الجوانية ، ص 115.

3- أبو حامد الغزالى :

يذهب عثمان أمين إلى[1] أن الفرق بين ما أسماه "البرانى" و "الجوانـــى" قد جلاه الغزالى من قبل بتحليل نفسى دقيق وببيان فلسفى عمـــيق يـــندر أن تجد فى أى أدب من آداب العالم قديمة وحديثة ما يقاربـــه فى اللطافة والدقة والغزارة. نراه فى "معارج القدس" يشير إلـــى شـــدة الاختلاف بين مقاييس الأبدى ومقاييس الزمانى ، أو بُعد الهـــوة بين المعرفة المكانية البرانية وبين المعرفة الكشفية الجوانية ، فـــيقول : " وكيف يقاس الدوام الأبدى بدوام المتغير الفاسد ؟ وكذلك شـــدة الوصول : فكيف يكون ما وصوله بملاقاة السطوح والأجسام بالقـــياس إلـــى ما وصوله بالسريان فى جوهر الشئ ، كأنه هو بلا انفصال ، إذا العقل والمعقول واحد وقريب من الواحد" . ونراه كذلك فى "مشكاه الأنوار" يوازن بين عين البصر وعين الروح ، فيقول بإن البصر لا يدرك ذاته ، ولكن الروح مدركة لذاتها . والبصر لا يرى البعـــيد كما يرى القريب أو لا يرى من وراء حجاب ، فى حين أن الـــروح تكـــشف حقائق الأشياء وترفع عنها الحجاب ، والبصر إنما يـــدرك فـــى الأشـــياء ما ظهر منها والروح تدرك كنهها وحقيقتها ، والبصر لا يرى إلا جزءً يسيراً من الوجود ، فى حين أن الروح هى الوجود بأسره .

---

(1) الجوانية ، ص 130-131.

والقلب موضع نظر رب العالمين ، فيا عجبا لمن يهتم بالوجه الـــذي هـــو منظـــر الخلق ، فيغسله وينظفه من الأقذار والأدناس ، ويـــزينه بمـــا أمكنه ، لئلا يطلع عليه مخلوق على عيب ، ولا يهتم بالقلـــب الذى هو محل نظر رب العالمين ، فيطيبه ويزينه كيلا يطلع الـــرب جـــلّ ذكره على دنس وشين وآفة وعيب ، بل يهمله بفضائح وأقـــذار وقبائح ، لو أطلع الخلق على واحد منها لهجروه ، وتبرأوا منه وطروده[1].

والـــتقوى صـــفة القلب ، فيجب أن تكون أعمال القلب على الجملـــة أفـــضل من حركات الجوارح ، وأن تكون النية من جملتها أفـــضل لأنها عبارة عن ميل القلب إلى الخير وإرادته له. والغرض مـــن الأعمال بالجوارح أن يعوّد القلب إرادة الخير ويتأكد فيه الميل إلـــيه ليفرغ من شهواته الدنيا ويكب على الذكر والفكر ، فالمطلوب مـــن الطاعات كلها هو تغيير القلوب ، فلا تظن أن فى وضع الجبهة علـــى الأرض غرضاً من حيث إنه جمع بين الجبهة والأرض ، بل مـــن حيث إنه بحكم العادة يؤكد صفة التواضع فى القلب ، فإن من يجد فى نفسه تواضعاً واستكان بأعضائه وصورها بصورة التواضع ، تأكـــد تواضعه ، ومن وجد فى قلبه رقة على يتيم فإذا مسح رأسه

---

(1) أبـــو حامـــد الغزالى ، منهاج العابدين ، دراسة وتحقيق خالد حربى ، ط الأولى ، دار الوفاء ، الإسكندرية 2007 ، ص 271.

وقــبله، تأكــدت الرقة فى قلبه ، ولهذا لم يكن العمل بغير نية مفيد أصـــلاً ، لأن مــن يمسح رأس يتيم وهو غافل بقلبه ، لم ينتشر من أعــضائه أثـــر إلـــى قلبه لتأكيد الرقة. وكذلك من يسجد غافلاً وهو مــشغول الهــم بأعراض الدنيا ، لم ينشر من جبهته ووضعها على الأرض أثـــر إلى قلبه يتأكد به التواضع ، فكان وجود ذلك كعدمه ، ومـــا ساوى وجوده عدمه بالإضافة إلى الغرض المطلوب منه يسمى باطلاً ، فيقال العبادة بغير نية باطلة[1].

رأى عــثمان أمــين مــع الغزالى[2] : أن القلب ملك مطاع ورئـــيس متـــبع والأعضاء كلها له تبع ، فإذا صلح المتبوع ، صلح التبع ، وإذا استقام الملك ، استقامت الرعية ، بيّن ذلك ما روى عن النبى (ﷺ) : "ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت ، صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب" خزانة كل جوهر لعقد نفـــيس ، وكـــل معنــــى خطيـــر ، أولها العقل ، وأجلها معرفة رب العالمـــين ، ثم النية الصالحة فى الطاعات ، ثم أنواع العلوم والحكم التـــى هى شرف العبد ، وسائر الأخلاق الشريفة والخصال التى بها تفاضل الرجال .

---

(1) راجـــع ، أبو حامد الغزالى ، إحياء علوم الدين ، تحقيق أبى حفص سيد إبراهيم ، دار الحديث ، القاهرة 1419 هــ - 1998 م ، ج 5 ، ص 11.

(2) أبو حامد الغزالى ، وتحقيق خالد حربى ، منهاج العابدين ، ص 272.

وكـــذلك تبـــصرة الإنسان بعيوب نفسه ، فمن كانت بصيرته نافـــذة تخـــف عيوبه ، فإذا عرف العيوب أمكنه العلاج ، ولكن أكثر الخلـــق جاهلون بعيوب أنفسهم يرى أحدهم القذى فى عين أخيه ولا يرى الجذع فى عين نفسه ، فمن أراد أن يعرف نفسه فله أربع طرق عـــند الغزالـــى[1]: الأولـــى: أن يجلس بين يدى شيخ بصير بعيوب الـــنفس مطلع على خفايا الآفات ويحكمه فى نفسه ويتبع إشارته فى مجاهدتـــه ، وهذا شأن المريد مع شيخه والتلميذ مع أستاذه ، فيعرفه أستاذه وشيخه عيوب نفسه وطريق علاجها. الثانية: أن يطلب صديقاً بـــصيراً متديناً فينصبه رقيباً على نفسه ليلاحظ أحواله وأفعاله ، فما كـــره من أخلاقه وعيوبه الباطنة والظاهرة ينبهه عليها ، فكهذا كان يفعـــل الأكـــياس والأكابر من أئمة الدين ، فكان عمر ابن الخطاب (رضـــى الله عنه) يقول : رحم الله امرءا أهدى إلىّ عيوبى ، وكان يسأل سلمان عن عيوبه ، فلما قدم عليه قال : ما الذى بلغك عنى مما تكرهه ، فاستعفى ، فألح عليه ، فقال: بلغنى أنك جمعت بين إدامين على مائدة ، وأن لك حلتين حلة بالنهار وحلة بالليل ، قال وهل بلغك غيـــر هذا ؟ قال لا ، فقال: أما هذان فقد كفيتهما. وكان يسأل حذيفة قائلاً له: أنت صاحب رسول الله ﷺ ، فى المنافقين ، فهل ترى علىّ

---

(1) أبو حامد الغزالى ، مكاشفة القلوب المقرب إلى حضرة علام الغيوب ، تحقيق أبى عبد الرحمن صلاح محمد عويضة ، دار المنار (د.ت) ، ص 214 ، 215.

شيئاً من آثار النفاق ، فهو على جلاله قدره وعلو منصبه هكذا كانت تهمــته لنفــسه. الطريق الثالثة : أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألـــسنة أعدائـــه ، فإن عين السخط تبدئ ، ولعل انتفاع الإنسان بعدو مــشاحن يذكـــره عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يثنى عليه ويمدحه ويخفى عنه عيوبه ، إلا أن الطبع مجبول على تكذيب العدو وحمـــل مـــا يقوله على الحسد ، ولكن البصير لا يخلو عن الانتفاع بقــول أعدائـــه ، فإن مساوئه لابد وأن تنتشر على ألسنتهم. الطريق الـــرابعة: أن يخـــالط الناس ، فكل ما رآه مذموماً فيها بين الخلق ، فليطالب نفسه بها وينسبها إليه ، فإن المؤمن مرآة المؤمن فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه ، ويعلم أن الطبائع متقاربة فى إتباع الهوى ، فما يتصف به واحد من الأقران ، لا ينفك القرن الآخر عن أصله أو عـــن أعظم منه أو عن شيئ منه ، فليتفقد نفسه ويطهرها من كل ما يذمه من غيره.

وهـــذه الطـــرق الأربـــع إن تأملها الإنسان بعين الاعتبار ، انفتحت بصيرته ، وانكشفت له علل القلوب وأمراضها وأدويتها بنور العلم واليقين (الجوانى).

وكـــأن بعـــثمان أمين هنا يجد فى الغزالى ضالته فيما يحاول الكشف عنه من الفرق بين "البرانى" و "الجواني" وشتان بين مقاييس هذا ، وذاك ، وما أوسع الهوة التى تفصل بين المعرفة البرانية التى

تــتعلق وترتبط بالمكان ، وبين المعرفة الكشفية الجوانية ، تلك التى ليس لها محل إلا القلب .

4- الصوفية :

وعـند هذا الحد من البحث فى الغزالى نجد عثمان أمين ينقل بحـثه عـن الجوانـية إلى أرباب القلوب ، والأذواق والمواجيد أو بالأحـرى الصوفية ، ويحاول أن يبين أن كثيراً من أحوال ومقامات الصوفية تعد "جوانية" خالصة .

فحـال المراقبة والمحاسبة عند الصوفية من المعانى الجوانية العمـيقة ، لأن المراقبة[1]: علم العبد باطلاع الرب سبحانه وتعالى علـيه ، فاستدامته لهذا العلم مراقبة لربه ، وهذا أصل كل خير له ، ولا يكـاد يصل إلى هذه المرتبة إلا بعد فراغه من المحاسبة ، فإذا حاسب نفسه على ما سبق له واصلح حاله فى الوقت ، ولازم طريق الحـق ، وأحسن ما بينه وبين الله تعالى بمراعاة القلب ، وحفظ مع الله تعالـى الأنفـاس ، وراقب الله تعالى فى عموم أحواله ، ويرى أفعالـه ويـسمع أقـواله. ومستمرات المحاسبة زجر النفس ، ووخذ الـضمير ، وإيـلام النفس ، وترويض الإرادة ، وحضها على ترك آفاتها .

والمـراقبة مـن أوائـل أعمال الباطن (الجوانى) بعد إعمار الظاهر ، بل هى الأداة الأساسية لأعمال الباطن ، فالعبد السالك فى

(1) راجـع ، محمـد على أبو ريان، الحركة الصوفية فى الإسلام، دار المعرفة الجامعية، 1990، ص132.

طــريق الآخرة يُحصّل ما أُمر به فى ظاهره ، ثم يجلس على بساط المــراقبة ويأخذ بالتخليص فى باطنه حتى لا يبقى فيه شيئ نهاه عنه ربـــه المطلع على جميع أحوال قلبه وضميره ، فيعبد العبد ربه كأنه يراه ، فإن لم يكن يراه ، فهو تعالى يراه.

وتلك أفعال داخلية ترتبط بالجانب "الجوانى" الباطن للإنسان ، ولا ترتبط بالظاهر "البرانى".

والإخـــلاص عند الصوفية معناه[1]: أن يكون ظاهر الإنسان وباطـــنه وســـكونه وحركاته خالصة لله ، فلا يشوبه حظ النفس ولا هـــوى ولا خلـــق ولا طمـــع .. والإخـــلاص ضد الرياء ونقيضه ، فالمرائـــى يعمل ليرى ، والمخلص يعمل ليصل. والارتباط بين النية والإخـــلاص فى الناحية الباطنية واضح بشكل ملحوظ ، فلا إخلاص بـــلا نية ، ولا نية بلا إخلاص ــ فبمقدار الإخلاص فى النية يكون الـــثواب ويكون الترقى ، ولابد فى كل عمل يأتيه الإنسان ، بل وكل أمـــر يتركه من النية والإخلاص معاً وذلك لكى يترتب عليه الثواب والأجـــر مـــن الله على هذا العمل ، فالنية والقصد والعزم والإرادة والمشيئة كل ذلك بمعنى واحد . ويمكن جمع هذا المعنى فى الحديث النـــبوى : " **إنمـــا الأعمـــال بالنـــيات ، وإنما لكل أمرئ ما نوى**".

---

(1) راجع، حسن الشرقاوى ، الحكومة الباطنية ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، 1998 ، ص 112-113.

فـــالإخلاص مـــرتبط بعزم وإرادة ومشيئة ونية العبد ، فإذا أصبحت جمـــيعاً كان الإخلاص نوراً من نور الله استودعه قلب عبده المؤمن فقطعـــه بـــه عن غيره ، ذلك هو الإخلاص الذى لا يطلع عليه ملك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده ، ولا هوى فيبدله.

والإخلاص فى العبادة شرط باتفاق العلماء والعمل الذى يخلو مـــن الإخلاص ليس له قيمة عند الله جلّ وعلى الذى يقول: **﴿وَقَدِمْنَا إِلَـــى مَـــا عَمِلُـــوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا﴾** [1] لأنه خال من الإخـــلاص الـــذى يرتفع بصاحبه من أسفل سافلين إلى أعلى عليين مصدقاً لقوله تعالى: **﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِـدَ لَهُـمْ نَـصِيرًا * إِلاَّ الَّـذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْـرًا عَظِيمًا﴾**[2] . فالأخلاص من أعمال القلوب (الجوانية) التى لا يطلع عليها إلا الله تبارك وتعالى.

ويُعـــد "الـــورع" مـــن المعانى "الجوانية" الأصيلة التى ترتبط بـــباطن المـــرء ، لا بظاهره "البرانى". والورع مصطلح نبوى ورد بلفظـــه على لسانه ﷺ فى وصيته لأبى هريرة حيث قال: "كن ورعاً تكـــن أعـــبد الناس ، وكن قنعا تكن أشكر الناس ، واحب للناس ما

---

(1) سورة الفرقان ، أية 23.

(2) سورة النساء ، الأيتان 145 - 146.

تحـــب لنفسك تكن مؤمناً ، وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً ، وأقـــلّ الصحك ، فإن كثرة الضحك تميت القلب[1]. وقال ﷺ : "البر حُـــسن الخلـــق ، والإثـــم مـــا حالك صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس"[2]. ولما جاءه وابصه بن معبد ، قال له ﷺ: "جئت تسأل عن البـــر" ، فقـــال نعـــم ، قال ﷺ : "استفت قلبك ، البر ما أطمأنت إليه الـــنفس وأطمـــأن إلـــيه القلب ، والإثم ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك"[3].

لاشـــك أن هـــذا الحـــديث مع ما فيه من الدلالة على الأمر بالـــورع والـــتورع ، فإنه يحمل إشارة إلى (الجوانية) أو الحساسية المـــرهفة التـــى يتمتع بها الصالحون من عباد الله ، فترتاح نفوسهم وتطمـــئن إلـــى البر ، وتأنف من المعصية حتى وإن أفتاهم الناس. ولعل فى هذا المقياس أمارة (جوانية) يختبر بها العبد قلبه ، فإن كان يطمـــئن للبر والتقوى ، وينفر من المعصية ، فهو قلب صالح ، وإن كان دون ذلك، فهو بحاجة إلى تزكية وإصلاح الباطن (الجوانى)[4].

وفيما أورده القشيرى عن إبراهيم بن شيبان أنه قال : الشرف

---

(1) رواه ابـــن ماجه فى سننه ، باب الورع والزهد ، حديث رقم 4217 ، ورواه البيهقى والبزاز والحاكم والطبرانى فى الأوسط من حديث حذيفة رضى الله عنه.

(2) رواه مسلم فى صحيحه.

(3) رواه أحمد والدارمى.

(4) راجع ، خالد حربى ، شهيد الخوف الإلهى ، الحسن البصرى ، م.س ، ص 72.

فى التواضع ، والعز فى التقوى ، والحرية فى القناعة" ما يدل على أن تقويم الأخلاق والأفعال عند الصوفية المسلمين تقويم جوانى على الأصالة ، أى تقويم بحسب ما فيها من درجات الجهد لمغالبة النفس وكبح غرورها ومخالفتها عن هواها ، وصدارة فعل القلب على فعل الجوارح . وما من شك فى أنهم يتابعون فى هذا التقويم روح القرآن ونصه على السواء . إن الكتاب العزيز يقول : **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِه﴾**[1] . ويقول : **﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾**[2] وشتان بين برآنى زائف وجوانى خالص.

وهاك شهادة أحد المفكرين الغربيين الداعية إلى إعلاء الجانب الباطنى (الجوانى) للشريعة الإسلامية وهو كارليل ذهب إلى[3]: أن الإخلاص فى العقيدة هو المنطلق إلى حظيرة الإيمان ، والإيمان ليس تقليداً أو محاكاة ، وإنما هو إخلاص ظاهر وباطن. إن القانون الظاهرى أو القضائى يهتم فقط بالشكل والرسوم دون الخوض فى معنى النية والإخلاص ، فيعتبر من يؤدى الطاعة الظاهرة هو وحده المحقق لقصد الشرع ، حتى ولو كان ذلك الشخص مرائياً أو منافقاً

---

(1) سورة البقرة ، آية 204.

(2) سورة الأعراف ، آية 205.

(3) راجع ، حسن الشرقاوى ، الأخلاق الإسلامية ، دار المعرفة الجامعية ، 1999 ، ص 282 .

من الجهة الإيمانية " ، ولذلك ركز كارليل اهتمامه بالسلوك الأخلاقى الذى ينبع من الباطن أو من الإيمان المشيد على الإخلاص والطاعة.

ولقــد اســترعت القــيم الروحية فى الإسلام انتباه كثير من المستــشرقين الــذين أشادوا بعظمتها "فالمثل الأعلى الذى يرمى إلى الــتآلف بــين الأجناس قد صوره الإسلام تصويراً جعله أقرب إلى الــنفوس مــن تصوير أى دين آخر ، لأن عصبية الأمم التى أُقيمت علــى الدين المحمدى قد نظرت إلى مبدأ المساواة بين أجناس البشر جمــيعاً نظــرة بلغــت مــن الجد والصدق مبلغاً يورث الخجل عند غيرهم[1] على حد تعبير هيرجرونجه.

ولقد دلت تجارب الصالحين على مر العصور على أن تزكية الــنفس والالتجاء إلى الله والتقرب إليه بالصالحات الباقيات ، يجعلها تستــشرق إلى الملأ الأعلى ، فتحصل منه نفحات لا تتأتى لمن دَسّ نفــسه ، ولا لــذوى الــنفوس المادية الذين شغلوا بالمادة عن الله ، وبالدنيا عن الدين.

(1) عثمان أمين ، الجوانية ، ص 188.

5- محمد عبده :

ومن البحث عن "الجوانية" عند الصوفية ، ينتقل عثمان أمين إلـــى البحث عنها فى الفكر العربى المعاصر ، فيجد[1]: محمد عبده المـــصرى ، الذى عبر أجلى تعبير وأنقاه عن روح أمتنا ومقومات شخصيتنا ، يُعد بحق رسولاً من رسل الوعى الإنسانى .. ولا نزاع فـــى أن للأســـتاذ الإمام أثراً عميقاً فى النهضة الفكرية الحديثة التى قامـــت فى مصر وفى أقطار الشرق العربى والإسلامى ، ولا يزال فكره ملهماً للحياة الروحية فى بلادنا وفى أكثر البلاد الإسلامية. وإن المـــتأمل المنصف لابد أن يلاحظ أننا حين نستقصى الحركة الفكرية منذ أيام قاسم أمين وسعد زغلول إلى المفكرين المعاصرين من مثل أحمد لطفى السيد وفريد وجدى ومصطفى عبد الرازق وعباس العقاد وطـــه حـــسين وأحمد أمين وعلى عبد الرازق وحسين هيكل وخالد محمد خالد نجد أنهم جميعاً ، على اختلاف نزعاتهم وتباين اتجاهاتهم ، لا يخلون من أن يكونوا متأثرين بآراء الأستاذ الإمام من قريب أو مـــن بعيد ، فلتعاليم محمد عبده قيمة عملية ، فضلاً عمالها من قيمة تاريخـــية ، فإننا ما برحنا نلمس أثر الإمام قوياً ، لا فى شئون الدين والأخـــلاق والتـــربية فحسب ، بل فى مجالات الإصلاح الاجتماعى

---

(1) راجع ، عثمان أمين ، رائد الفكر المصرى الإمام محمد عبده ، المجلس الأعلى للثقافة (د.ت) ، ص 16 ، 17.

والسياسى فى مصر وفى بلاد العروبة والإسلام.

وينتهج عثمان أمين فى دراسته للإمام محمد عبده منهجاً قريباً مـن المـنهج الفلسفى عند الفيلسوف هنرى برجسون ، وقوامه بذل غاية الجهد للفهم الحدسى والتعاطف العقلى والمشاركة من الداخل . وهذا الجهد "الجوانى" هو عندنا[1]: ضرورى لكل بحث قويم ، ولكل ثقافـة عميقة ، ولكل مسمى صادق ، وبدونه يمتنع على الباحث أياً كانـت قدرته أن ينفذ إلى الشخصية التى يود أن يتعرف إليها أو أن يفهم الموضوع الذى يريد أن يعالجه فهماً كاملاً.

والخطـوة الأولى لمحمد عبده كفيلسوف فى نظر عثمان أمين ، هـى[2]: تنبـيه الوجدان ، وإيقاظ الضمير. وإذ سخط محمد عبده على ضيق النظر ، والافتقار إلى روح النقد ، وتقلب الآراء ، وعقم المناقـشات بـين أهل الدرس ، وقف من المجتمع كله موقف الناقد الحـصيف مـنذ البداية ، فأعلن حقوق الفكر الحر ، فالتفكير واجب على الموجود العاقل لا مخلص منه ، وعلى هذا الموجود العاقل أن يـنهض بجهـوده الخاصة للبحث عن الحقيقة فى العالم الذى يكتنفه والفحـص عـن الموجودات والأشياء على قدر ما تتيحه له وسائله الخاصـة. وسـواء كان مؤيداً أو معارضاً ، فواجبه أن يدعم موقفه

---

(1) عثمان أمين ، رائد الفكر المصرى الإمام محمد عبده ، ص 18.

(2) المصدر نفسه ، ص 65.

ببـــراهين يقينية. لكن إذا كان عليه أن لا يهمل واجب التفكير فعليه أيـــضاً أن يحـــتاط من الشطط فى الاستدلال . ولقد أقر محمد عبده كغيـــر واحـــد من أنصار "الحركة الإنسانية" بقيمة الشك من وجهة النظـــر العلمـــية ، وبـــيّن فى الحاح ، الضرورة الحيوية ، ضرورة تجديد بناء عقائدنا تجديداً يلائم تغيرات الموجودات الواقعية.

ويعـــرض عثمان أمين لموقف محمد عبده من العلم والدين ، ذاهباً إلى أن الإمام[1]: لم يسلم بالتعارض بينهما ، بل رأى أن الدين كالعلم لا يتنافى مع التقدم. وعلى هذا النحو يتصور النظامين الدينى والعلمى على أنهما وجهان لحقيقة واحدة. وقد عمل محمد عبده بهذه الروح ، مقتنعاً اقتناعاً راسخاً بأن الدين والعلم متى فُهما على الوجه الـــسليم لا يمكن أن يكون بينهما خصومة أو نزاع ، فالعلم الصحيح مقوّم للوجدان ، والوجدان السليم من أشد أعوان العلم. والدين الكامل علـــم وذوق ، عقـــل ولـــب ، برهان وإذعان ، فكر ووجدان ، فإذا اقتـــصر دين على أحد الأمرين فقد سقطت إحدى قائمتيه ، وهيهات أن يقوم على الأخرى.

إن الفلـــسفة عند محمد عبده ، كما يرى عثمان أمين ، تقترب بـــوجه من الوجوه من "الجوانية" التى ينادى بها[2]: ففلسفة الإمام لا

---

(1) المصدر نفسه ، ص 67.

(2) المصدر نفسه ، ص 68.

تفـــضى إلى مذهب من الصيغ اللفظية والمجردات الذهنية ، وليست فحسب وصفاً جامداً لطائفة معينة من الظواهر النفسية أو المنطقية أو الأخلاقـــية ، بل يجب أن تكون الفلسفة ، على نحو ما ، دراسة حية "ديناميكـــية" نابـــضة ، وأن يكـــون قوامها مجهود الفكر للنفوذ إلى الوجـــود والوصـــول إلـــى لب الأشياء ، فإن كل ما يتصل بوجود الأشياء وحياة الإنسان لا ينبغى أن يكون غريباً عنها.

الفصل الرابع

تأصيل معنى الجوانية فى الفكر الغربى

1- تمهيد :

بعد أن استلهم عثمان أمين واستشف واستخرج معنى الفلسفة الجوانية وكيف أنها تقوم على مخاطبة الروح ، والوجدان ، والضمير ، وبالجملة باطن الإنسان وخارجه .. تراه ينطلق بهذا المعنى الإسلامى للجوانية ليبحث عنه فى الفكر والفلسفات الغربية .

نفترض مسبقاً أن كل الفلسفات الغربية التى تهتم بالمعانى الداخلية للإنسان وتبحث فى باطنه ، لابد وأن يجد فيها عثمان أمين ما يتفق ويعزز معنى الفلسفة الجوانية التى ينادى بها .. وذلك ما سنحاول الكشف عنه فى الفقرات التالية .

ينطلق عثمان فى بحثه عن الجوانية فى الفكر الغربى وهو يربط الجوانية بالقيم فيذهب إلى[1]: أن القيم التى تستند إليها الجوانية لابد وأن تكون قيماً روحية أبدية لا زمانية ، والجوانية لا تتطلب من الإنسان فى حياته أن يجعل المادة روحاً ، ولا الزمان أبدياً ، وإنما تتطلب منه أولاً أن يبذل الجهد ارتفاعاً عن الواقع الراهن والمباشر ، وألا يستسلم لما يسمى "ببرهان الحضور" وأن يمارس ما سماه الرسول عليه الصلاة والسلام باسم "الجهاد الأكبر" ويعنى به مخالفة النفس عن الهوى والتعالى عن بواعث المادة والصبر على مكاره الزمان ، حتى يتعرض لنغمات الروح ويستقبل بوارق الإلهام. وجلىّ

(1) عثمان أمين ، الجوانية ، ص 137.

إذن أن الجوانية مثالية واعية ، تقوم على التجربة الإنسانية المفتوحة ، وتنظـــر إلى ماهية الإنسان عندها على أنه الكائن الذى يستطيع أن يجاوز نفسه دائماً . ولذلك كانت قيم الجوانية كلها قيماً روحية مثالية ، تبتغـــى مـــا حقـــه أن يكون ، وما هو مطلق ، وما هو شرط غير مشروط ، وما هو أبدى لا زمانى .

ويقـــرر عـــثمان أمين مسبقاً أن من الفلسفات الغربية فلسفات هدامـــة ، وأن منهج فلسفته الجوانية يتفق ومنهج تلك الفلسفات ، حتى وإن كان صوتها مرتفع ، وتتباهى بالانتساب إلى الفلسفة ، فمهما يكن الرأى فى المذاهب الهدامة التى تتباهى بالانتساب إلى الفلسفة ، فالذى لا شـــك فـــيه أن منهج فلسفتنا الجوانية فى استنادها إلى تزكية الوعى الإنـــسانى الـــشامل ، ودعوتها الفكر إلى الالتفات إلى ذاته ليجد فيها سبب الأشياء وقوامها وفى توجيه النظر إلى الاحتفاء بالمعنى والفكرة والمـــثال مـــنهج لا يزال كبير الأهمية لفهم العالم وفهم الإنسان فضلاً عن أنه يفسح الطريق لترسم المثل الأعلى "ويتخطى" ما هو كائن إلى "ما حقه أن يكون " ومجاوزة "الواقعة" إلى "القيمة" ويبث الإيمان بقدرة الـــروح الخـــالص علـــى العلو على حدود الواقع فى المكان والزمان واليقين بحرية الذات الواعية فى إصلاح الفرد وإصلاح الجماعة[1].

وتـــنطوى الجوانية على[2]: ضرب من الميتافيزيقا يمكن أن

---

(1) عثمان أمين ، الجوانية ، ص 134.

(2) راجع ، المصدر نفسه ص 127-129.

نسميها ميتافيزيقا "الرؤية الواقعية" التى هى أقرب إلى الرؤية الحسية الفسيولوجية ، بل هى رؤية روحية نفسية ، هى الرؤية بالعين "الداخلية" أو "عين البصيرة" كما يقول الغزالى أو "بعيون الروح" كما كان أفلاطون يقول. وهذه الرؤية الإنسانية الواعية التى تسجل لحظات الإلهام الداخلى إنما تتجلى فيها حكمتنا وتجربتنا ورؤيتنا. فالجوانية إذن تروم معرفة الأشخاص والأفكار معرفة ميتافيزيقية صحيحة ، أى معرفتها عن طريق "المبادئ" و "من الداخل" أو بضرب من "الإئتناس" بها ، يحدث تأليف فريد يكشف لنا عن ماهيتها ، إنما تنادى بما نادى به الغزالى من وجوب التفرقة بين طريقين فى المعرفة مختلفين جداً : أحدهما طريق الرؤية "الحدسية" بالتعاطف القلبى والمشاركة الروحية المؤدية إلى الجوهر الصافى والموصلة إلى ما سماه الغزالى باسم "النفث فى الروح" أو "النور الذى يقذفه الله فى القلب. والثانية طريق المشاهدة الحسية أو التحليل المنطقى المؤديين إلى "التفرج" على الأشياء أو ملاحظتها من الخارج ، بالتطويف حولها دون نفاذ إلى كنهها .

وفى بحثه عن هذا المعنى للجوانية فى الفكر الغربى نجد عثمان أمين يذكر لنا أن هذا المعنى يوجد عند عدد كبير من فلاسفة الغرب ويمكن الإشارة إلى بعضهم فى الصفحات التالية.

2- ديكارت:

يـــضع عـــثمان أمين رينه ديكارت[1] على قمة برج الفلاسفة الفرنسيين ، بل ويصنفه إماماً للفلسفة الغربية ، ورائداً للاتجاه العقلى فـــى أوربـــا حـــيث اشتهرت فلسفته فى تلك القارة كلها بأنها "فلسفة الأفكـــار الواضحة المتميزة" ، وحملت إلى كل من يجيئون إلى هذه الدنيا رسالة التوعية والتنوير والتحرير فلم تقبل على الحق دليلاً إلا بداهـــة العقـــل وحـــده ، إذ أن العقل عنده "أعدل الأشياء قسمة بين الـــناس" وحظـــوظهم مـــنه على العموم متساوية ، بغض النظر عن اختلافهم فى الأجناس واللغات والعقائد والأوطان.

قال ديكارت للإنسان خير ما يمكن أن يقال له: " لا تقبل شيئاً علـــى أنه حق ما لم تتبين بنور الفطرة وبداهة العقل أنه حق" . وقال له أولاً: أنت تفكر فأنت إذن موجود" وقال له أخيراً : "أفاكنت حر ، فأنـــت إذن مـــسئول" . وإذن فالنظر الميتافيزيقى الخالص يقربنا من حقـــيقة الأشـــخاص ويدنينا من كينونة العالم ، خلافاً للنظر التحليلى المنطقى أو التجريبى الحسى ، فإن الوجود ليس شيئاً قد فرض علينا من الخارج بما يمنحه من تصديق وما نقر له من قيمة[2].

---

(1) عـــثمان أمـــين ، رواد المثالـــية فى الفلسفة الغربية ، ط الثانية ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة (د.ت) ، ص 19.

(2) عثمان أمين ، الجوانية ، ص 134.

لـــم يبتغ ديكارت من الشك إلا الوصول إلى اليقين بعدما وجد نفـسه منذ حداثة سنة أمام اعتقادات متضاربة وآراء موروثة يدعى كـــل واحـــد منها أنه الأصح ، وبالبداهة نتبين أن ذلك غير ممكن ، ولـــذلك كـــان لابد من التشكيك فى هذه العقائد الموروثة ، وبما أن الحـــواس هـــى أداة تلقـــى هذه العقائد وتلك الآراء ، فلابد من البدء بالـــشك فيها "فكل ما تلقيته حتى اليوم وآمنت بأنه من أصدق الأشياء وأوثقهـــا ، قـــد اكتسبته من الحواس أو بواسطة الحواس ، غير أنى جـــربت هـــذه الحـــواس فى بعض الأحيان فوجدتها خداعة ، ومن الحكمة ألا نطمئن كل الاطمئنان إلى من خدعونا"[1].

وينتهـــى ديكـــارت من شكه فى الحواس إلى ثقته بالمعقولات التى هى من الأوليات كقولنا إن مجموع ثلاثة وأربعة هو سبعة دائماً ، يقـــول ديكـــارت[2]: إن الحساب والهندسة وما شاكلهما من العلوم التـــى لا تنظر إلا فى أمور بسيطة جداً وعامة جداً دون اهتمام كبير بالوقـــوف على مبلغ تحقق هذه الأمور فى الخارج أو عدم تحققها ، إنمـــا تـــشتمل على شيئ يقينى لا سبيل إلى الشك فيه ، فسواء كنت متـــيقظاً أو نائماً هناك حقيقة ثابتة وهى أن مجموع اثنين وثلاثة هو

---

(1) ريـــنه ديكارت ، التأملات فى الفلسفة الأولى ، ترجمة عثمان أمين ، ط الثانية ، مكتبة القاهرة الحديثة 1956، ص 54.

(2) ديكارت ، وترجمة عثمان أمين ، التأملات فى الفلسفة الأولى ، ص 56.

خمسة دائماً ، وأن المربع لن يزيد على أربعة أضلاع أبدا ، ولا يبدو فى الإمكان أن حقائق بلغت هذه المرتبة من الوضوح والجلاء يصح أن تكون موضوع شبهة خطأ أو انعدام يقين .

ولكن ديكارت لم يلبث أن شك فى المعقولات أيضاً كالرياضيات التى رآها ذاتية داخلية وليست واقعية ، فتوقف سير الذهن وتجعله يدور مع أفكاره الذاتية ، الأمر الذى يمنع اتصاله أو تطابقه مع الواقع ، ومع ذلك فإن لديه اعتقاداً راسخاً فى ذهنه منذ زمن طويل ، وهو أن هناك إلهاً قادراً على كل شيئ ، وهو صانعه وخالقه على نحو ما هو موجود ، فما يدريه كما يقول ديكارت[1] : لعله قد قضى بأن لا يكون هناك أرض ولا سماء ولا جسم ممتد ، ولا شكل ولا مقدار ، ولا مكان ، ودبر مع ذلك كله أن أحسّ هذه الأشياء جميعاً ، وأن تبدو لى موجودة على نحو ما أراها ، بل لما كنت أرى أحياناً أن أُناساً يغلطون فى الأمور التى يحسبون أنهم أعلم الناس بها ، فما يدرينى لعله قد أراد أن أغلط أنا أيضاً كلما جمعت أثنين إلى ثلاثة أو أحصيت أضلاع مربع ما .. ولكن الله أسمى من أن يضلنى وهو أرحم الراحمين والمصدر الأعلى للحقيقة ، لذا سأفترض شيطاناً خبيثاً ذا مكر وبأس شديدين قد استعمل ما أوتى من مهارة لإضلالى ، وسأفترض أن السماء والهواء والأشياء الخارجية

---

(1) ديكارت وترجمة عثمان أمين ، التأملات ، ص 57.

لا تعدو أن تكون أوهاماً وخيالات قد نصبها الشيطان فخاخاً لاقتناص سذاجتى فى التصديق ، وسأعد نفسى خلوا من اليدين والعينين واللحم والدم وخلوا من الحواس ، وأن الوهم هو الذى يخيل لى أنى مالك لهذه الأشياء كلها ، وسأصر على التشبث بهذا الخاطر .

وبعد أن أتى شك ديكارت على كل شيئ محسوساً كان أم معقولاً ، ينتهى إلى اليقين الذى لا يستطيع الشك فيه وهو وجوده الخاص ، فيقول[1]: ولكنى سرعان ما لاحظت وأنا أحاول على هذا المنوال أن اعتقد بطلان كل شيئ أنه يلزمنى ضرورة ، أنا صاحب هذا الاعتقاد ، أن أكون شيئاً من الأشياء ، ولما رأيت هذه الحقيقة : أنا أفكر إذن أنا موجود ، هى من الرسوخ بحيث لا تزعزعها فروض الريبيين مهما يكن فيها من شطط ، حكمت بأنى أستطيع مطمئناً أن اتخذها مبدأ أول للفلسفة التى كنت أبحث عنها.

إن القضية "أنا أفكر إذن أنا موجود" (الكوجيتو) تعنى أنه ما دام المرء يشعر بأنه يفكر فذلك يعنى بالضرورة أن ثمت موجوداً يفكر ، إذ يستحيل وجود أفكار بدون ذات تتم فيها عملية التفكير ، وعلى ذلك فإن الذات المثبتة للوجود عن طريق الوجدان تكون هى نفسها الذات الموجودة ، وعلى هذا فإن أول مرحلة من مراحل

---

(1) ديكارت ، مقالة فى الطريقة ، ترجمة جميل صليبا ، ط الثانية ، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع ، بيروت 1970 ، ص 134.

معرفتنا هى إثبات وجود ذواتنا المفكرة ، وهذا أول سند يقينى يمكن الاطمئنان إليه ، وهو الكوجيتو الذى يُعد الدعامة الأولى للمعرفة عند ديكـــارت وهـــو سندها اليقينى الذى ييسر للفكر متابعة الكشف عن حقيقة الوجودين الإلهى والخارجى[1] ، ونادى ديكارت بمعيار اليقين الـــذى مثّله فى القاعدة الأولى من قواعد منهجه ، وهى قاعدة الجلاء والوضـــوح التى تقرر أن لا يقبل المرء أى شيئ على أنه حق ما لم يـــدرك فى وضوح أنه كذلك ، فيجب كما يقول[2]: أن لا أتلقى على الإطـــلاق شـــيئاً على أنه حق ما لم أتبين بالبداهة أنه كذلك ، أى أن أعنـــى بتجـــنب التعجل والتشبث بالأحكام السابقة ، وأن لا أدخل فى أحكامـــى إلا ما يتمثل لعقلى فى وضوح وتميز لا يكون لدى معهما أى مجال لوضعه موضع الشك .

تـــناول عـــثمان أمـــين منهج ديكارت وتأثر بالشك المنهجى عـــنده[3]: حـــيث استبعد شهادة الحواس لأنها تخدعنا أحياناً ، وذلك مناظر للمعرفة البرانية التى تعتمد على الحواس كوسيلة لها ، ولذلك يجـــب الشك فى القضايا التى يمكن الخطأ فيها ، وعليه فإن رحاب الـــشك ينبغـــى أن يمـــتد إلى جميع المجالات ما عدا مجال الأخلاق

---

(1) راجـــع ، محمد على أبو ريان ، تاريخ الفكر الفلسفى ، الفلسفة الحديثة ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية 1996 ، ص 60-61.

(2) ديكارت وترجمة جميل صليبا ، مقالة فى الطريقة ، ص 102.

(3) عثمان أمين ، ديكارت ، ط الخامسة ، مكتبة القاهرة الحديثة 1958 ، ص 128.

والحـــياة العملية حيث لا تحتمل أفعال الحياة عادة أى تأخير ، فيجب أن أشك فى وجود العالم الخارجى ، وفى حقيقة الأشياء المحيطة بى ، وفـــى وجود مثالى من الناس ، وفى وجود أى حقيقة متميزة ، بل يجب أن أشك فى قيمة ذهنى ، وعليه يدخل فى نطاق الشك الأحكام التـــى تبدو لعقلى أوضح الأحكام وأوفرها بداهة لأن من الممكن أن شيطاناً خبيثاً يلهو بى ، ويطيب له أن يوقعنى فى الضلال.

إن الـــشك الديكارتى كما يراه عثمان أمين هو فعل من أفعال الإرادة ينـــصب علـــى الأحكام ، لا على التصورات والأفكار ، لأن التـــصورات فى حد ذاتها من غير حكم لا تسمى صادقة ولا كاذبة ، بل الصدق والكذب هو الأحكام. إذن فالشك الديكارتى ليس شكاً غائياً ، بل شك منهجى يهدف إلى استجلاء حقائق الأشياء ، إنه شك العقل ، لاشـــك العقـــيدة الـــذى يحاول الارتفاع عن مرتبة المادة وعلائق الحـــواس ، والغاية المنشودة من وراءه هى غاية معرفية جوانية كما يقـــول ديكـــارت[1]: لقد استعملت دواعى الشك لإعداد أذهان القراء لتنظر فى الأمور الذهنية ولتمييزها عن الأشياء البدنية ، والشك فى الأشـــياء البدنية شك منهجى ، وهو نوع من المجاهدة ، وهو ضرب مـــن ممارسة الزهد فى المحسوسات للوصول إلى المكاشفة العقلية ، أو بلوغ الحقيقة الروحية .

---

(1) عثمان أمين ، ديكارت ، ص 36.

لقد كان لديكارت عند عثمان أمين أكبر الفضل فى بناء صرح الاتجاه العقلى الحديث ، حين وضع قاعدته المنهجية المشهورة "يجب أن لا أقبل شيئاً قط على أنه حق ما لم يتبين لى بالبداهة العقلية أنه كذلك ، ويجب أن لا أحكم على الأشياء إلا بما يتمثله ذهنى فى وضوح وتميز ينتفى معهما كل سبيل إلى الشك"(1). وقد قيل إن ما يسمى فى الفلسفة باسم "الثورة الديكارتية" يتلخص فى القاعدة التى تتطلب البداهة فى كل معرفة وفى كل يقين ، لأنها إنما تدعو إلى رفض كل سلطة تحاول أن تفرض نفسها على التفكير ، ولا تقبل إلا حكم العقل الذى لا يرى للحقيقة معياراً إلا البداهة والوضوح.

لقد ابتدع ديكارت روحانية قد قدر لها من بعد أن تكون مثالاً يحتذى ، لأنها لم تتراجع أمام الفواصل القاطعة ولأنها أكدت بجراءة وجود النفس مع الجسم والفكر مع الامتداد ، والحرية مع الضرورة ، والعالم مع الله . وابتدع الميتافيزيقيا الحديثة إذ أطلق الأذهان للمضى على طريق مثالية أراد هو نفسه أن يقف بها فى منتصف الطريق ، وإن يكن غيره قد ساروا بها إلى غايتها .. وابتكر مثلاً أعلى للتربية يجب أن لا يغيب عن أبصارنا أبداً ، وقوامه الاستعاضة التامة عن الذاكرة بالعقل ، مع ما تتضمنه تلك

(1) عثمان أمين ، رواد المثالية فى الفلسفة الغربية ، ص 19 .

الاستعاضة من أن المعرفة الصحيحة علاقتها بالمعلومات الموسوعية أقــل مـــن علاقــتها بالجهل الواعى لذاته والمصحوب بالعزم على اكتساب المعرفة[1].

ويـــرى عـــثمان أمين أن فلسفة ديكارت ، هى فلسفة ثورية تحمل فى طياتها معانى الجوانية التى ينادى بها من حيث إنها فلسفة تعلـــى مـــن ســيطرة النفس على انفعالاتها ، وسيادتها على خارج الإنسان .

فمـــا كـــان لهذه الفلسفة الديكارتية لتقنع بالوقوف عند التأمل والنظر المجدد ، كما كان شأن الفلسفات السابقة عليها ، وإنما أرادت أن تمضى إلى العمل والتطبيق ، رامية إلى التغيير الجذرى ، فليس الغـــرض مـــن المعـــرفة عند "أبى الفلسفة الحديثة" اكتساب الحكمة والتبصر فى الأمور فحسب ، بل أن ندبر سلوكنا ، وأن نسيطر على أبدانـــنا ، بمعنى أن تقدم الفلسفة للإنسان طريقاً للحياة جديدة ، تهيئ لـــه أن يملك زمام نفسه عن طريق فن عقلى لضبطها والتحكم فيها وأن يهـــيمن علـــى الطبـــيعة عن طريق "تعقيلها " ، أى بث الضوء الـــساطع فى أرجائها الحالكة .. ولما تبين أن تحقيق هذين المطلبين ممـــا يحتاج إلى أجيال عديدة والناس محتاجون إلى هداية سريعة ،

---

(1) عثمان أمين، لمحات من الفكر الفرنسى، مكتبة النهضة المصرية ، ط الأولى 1970، ص 46.

رأى أن نكتفى – مؤقتاً– بتقبل الأشياء التى لا نستطيع تغييرها أو لا طاقـــة لنا عليها ، وأن نلجأ إلى الحيلة و"الاستراتيجية" فى السيطرة علـــى الانفعالات النفسية ، وها هنا تتجلى "الجوانية" الديكارتية عن طريق هذه السيادة الداخلية ، سيادة النفس التى يستطيع بها كل أمرئ أن ينظر إلى العالم الحديث مؤكداً شعارنا الإسلامى فى الآية الكريمة "**إن الله لا يغيـــر مـــا بقـــوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**" . وإذا كنا قد أطلقـــنا وصـــف "الجوانية" على الفلسفة الديكارتية فلأنها تشترك مع الفلسفات الجديرة بهذا الاسم فى السمات الأساسية لكل فلسفة جوانية ، تزكية الوعى ، وتوخى الأصالة ، والتعمق فى استكناه الجوهر من وراء المظهر[1].

(1) راجع عثمان أمين ، رواد المثالية فى الفلسفة الغربية ، ص 25-26.

3- كانط :

يـــضف عـــثمان أمين كانط كرابع أقطاب الفلسفة منذ العصر اليونانـــى القـــديم ، حتـــى عصرنا هذا ، وذلك بعد أولهم أفلاطون وثانـــيهم أرسطو ، وثالثهم ديكارت . فكانط هو آخر أولئك العباقرة من أفذاذ الإنسانية المفكرة الذين استطاعوا ، بحياتهم ومؤلفاتهم ، أن يخلقـــوا فى الحياة العقلية فى بلادهم وخارج بلادهم ن أثراً عند أهل عـــصرهم ، وعـــند الخلـــف من بعدهم. لقد كانت لأفكار كانط أكبر الوقائـــع فى تاريخ العصر الحديث ، حيث تمثل ثورة شبيهة بالثورة التـــى أحـــدثها ســـقراط حين صرف الإنسان عن دراسة الكون إلى دراسة النفس ، وتحدد مهمة الفيلسوف تحديداً دقيقاً بحيث لا يعينه أن يستكشف مبادئ الوجود ، ولا أن يحصل لنفسه نظرة عن العالم بقدر ما يعينه أن يبحث فى قوة العقل ، ويلتمس شروط المعرفة الإنسانية ، ويبحث عن قيمة أفكارنا وأحكامنا وتصرفاتنا[1] .

وإذا كان كانط قد أصبح علماً على فلسفة ينسبونها إليه تسمى "الكانطية" أو "النقدية" أو "الترنسندنتالية" ، فأيا ما كان اختيار عثمان أمـــين أو تفـــضيله لأى من هذه الأوصاف الثلاثة ، فالذى لاشك فيه عـــنده أن فلـــسفة كانط هى الركيزة الأولى للمثالية الألمانية ، وأنها عـــبدت الطـــريق لانتصارات تلك المثالية منذ أواخر القرن التاسع

(1) راجع ، عثمان أمين ، رواد المثالية فى الفلسفة الغربية ، ص 57 .

عشر. ويرى عثمان أمين[1] مع أرنست كاسبير أن المثالية الكانطية ليست كالمثالية الأفلاطونية ، فليس المثالى فى مذهب كانط شيئاً معارضاً للتجربة ، وليس شيئاً واقعاً خارج التجربة متعالياً عليها ، بل هو أقرب إلى أن يكون مرحلة وعاملاً فى عملية التجربة ذاتها ، وليس للمثالى عند كانط وجوداً انطولوجياً مستقلاً ، ولا كياناً فردياً قائماً بذاته ، بل هو مبدأ منتظماً وضرورياً لاستعمال التجربة ، إنه يكملها ويضفى عليها وحدة نسقية ، ولذلك اتسمت المثالية الكانطية بطابعين ، طابع نقدى وطابع "ترنسندنتالى" ، الأول واضح كما يرى برتراند رسل ، لأن المثالية الألمانية منذ أيام كانط قد اتخذت نقد العقل وسيلة لبلوغ النتائج الفلسفية المتباينة ، وميزت تمييزاً دقيقاً بين "الذات" العارفة وبين "الموضوع الذى يُعرف" كما أنكرت الأخلاق النفعية إنكاراً صريحاً. و"الترانسندنتالية" عند كانط واتباعه ، إنما هى وصف للصور والمعانى والمبادئ "الأولانية" إذا كانت متعلقة بالتجربة ، لا متعالية عليها مفارقة لها "ومبادئ "النقدية" مبادئ ترنسندنتالية كذلك ، لأن المنهج النقدى – خلافاً للمنهج "القطعى" عبارة عن التطبيق الصحيح للمعانى "الأولانية" ، أى تطبيقها على "موضوع" معطى من التجربة .

ومعرفتنا التجريبية تستلزم انطباعات حسية وتصورات قبلية

(1) راجع ، عثمان أمين ، رواد المثالية فى الفلسفة الغربية ، ص 58.

معاً ، ذلك لأنه ينبغى أن تبدأ معرفتنا بالحواس ، لكن تصلنا انطباعات الحس دائماً مبعثرة أشتاتاً. ولما كان ينبغى أن تتحقق الوحدة فى المعرفة ، فإنا فى حاجة إلى عنصر الربط أو التوحيد بين الأشتات ، وتقوم التصورات القبلية بوظيفة الربط[1].

وفى اتجاه التوفيق بين "المثالية" و "الواقعية" يرى عثمان أمين[2]: أن روح الفلسفة الكانطية تمثل هذا الاتجاه ، بل وتجمع على نحو طريف بين الدعاوى التقليدية المتعارضة: دعاوى المدرستين المتخاصمتين: المدرسة "التجريبية" والمدرسة "العقلية" ، والنقدية تفسر كل معرفة صحيحة بأنها ثمرة لعاملين لازمين لبنائها ، ولا يقل الواحد منهما خطراً عن الآخر: عامل "أولانى" ، متقدم على التجربة تقدم الرتبة والحيثية ، وتقدم الشرط على المشروط ، لا تقدم السابق على اللاحق فى الزمان ، وهذا العامل هو من طبيعة الذات العارفة أو الذهن الناظر ، وعامل مادى قوامه أحاسيس الإدراك الحسى ، فإذا افتقرنا إلى واحد من العاملين ، لم يكن لدينا معرفة صحيحة لأن حدوسنا من غير تصورات تكون عمياء ، وتصوراتنا من غير حدوس تكون فارغة .

والسؤال الأكبر من عثمان أمين لفلسفة كانط ، سؤال بسيط

---

(1) محمود زيدان ، كانط وفلسفته النظرية ، ط الثالثة ، دار المعارف 1979 ، ص 9.

(2) راجع ، عثمان أمين ، رواد المثالية فى الفلسفة الغربية ، ص 61.

جـــداً فـــى ظاهره ، عميق جداً فى باطنه ، فعلى أى نحو ينبغى أن تكـــون الـــنفس الإنسانية لكى يكون من الممكن قيام واقع ما (علم أو أخلاق أو فن أو دين)؟ ويجيب عثمان أمين[1]: بأن منهج كانط يبتدئ مـــن هـــذه الوقائـــع المقررة أو "المعطيات" ، ثم يتجه للتحليل لكى نستخلص منها عناصرها "الأولانية" المكونة لها . وهذا التحليل ليس تحلـــيلاً منطقـــياً أو سيكولوجياً صرفا ، كما توهم بعض المحدثين ، وإنما هو تحليل "ترنسندنتالى" باصطلاح كانط ، بمعنى أنه شارطى ، كـــامن ، و "جوانى" –باصطلاحنا نحن– أى أنه يرمى إلى أن يحدد "أولانـــياً" (أى عقلـــياً ، مبدئياً وقبل كل تجربة) الشروط التى تجعل معـــرفتنا "ممكـــنة" ، وأن يرســـم فى الوقت نفسه مدى هذه المعرفة وحدودها. فطابع النقد الكانطى هو ما سمى بالصورة الجوانية: أنه لا يـــضع فى بِنية الذات الناظرة أو العاملة أفكاراً "مفطورة" أو مبادئ أولـــى ، بـــل يضع "صوراً خالصة" ومن ثم فقوام العقل النظرى أو العملى عند كانط هو القدرة على التأليف بواسطة "الصور الخالصة" التـــى يقدمها العقل نفسه للتجربة و "المقولات" الأولانية التى تصب فيها مادة التجربة بعد ذلك.

إن اهتمامى الأكبر فى كتاب نقد العقل المجرد ، كان دائماً ألا أتبـــين فقـــط كـــيف يمكننى أن أميز بعناية بين جهات المعرفة ، بل

---

(1) راجع ، المصدر نفسه ، ص 59 – 60.

وأيضاً كيف يمكن أن أشتق كل التصورات التى تخص كل جهة منها من مصدرها المشترك حتى يمكن بعد معرفة هذا الأصل أن أجدد بثقة كيفية استعمالها[1] . إن العقل على الرغم من كل مبادئه القبلية لا يعرفننا أبداً شيئاً أكثر من موضوعات التجربة الممكنة وحدها ، ونحن لا نعلم عن هذه الموضوعات إلا ما يمكن أن يكون معلوماً فى التجربة ، لكن هذا التغيير لا يمنع العقل من الوصول إلى النهاية الموضوعية للتجربة ، أى علاقة هذه التجربة بثمة شيئ يجب أن يكون هذا المبدأ الأسمى لكل موضوعات التجربة. ومن ثم فإن العقل لا يمكنه أبداً أن يتوصل إلى معرفة هذا الشيئ فى ذاته ، بل إلى معرفته فقط من حيث هو المبدأ الذى يرجع إليه استعمال العقل الخالص ، أى استعماله الكلى والموجه إلى أسمى الغايات وأعلاها فى مجال التجربة الممكنة. وهذه هى كل الفائدة التى يمكن أن نرجوها بحسب العقل[2].

ويقرر عثمان أمين أن[3] : الفكرة الرئيسة فى الفلسفة الكانطية مبنية على نقد العقل الخالص أو النظرى ، وهى أن لا نلتمس فى الأشياء تفسيراً لقوانين الذهن ، بل ينبغى أن نلتمس فى

---

(1) امانويل كانط ، مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة يمكن أن تصير علما ، ترجمة نازلى إسماعيل ، مراجعة عبد الرحمن بدوى ، دار الكتاب العربى ، القاهرة 1968 ، ص 151.

(2) إمانويل كانط ، مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة يمكن أن تصير علما ، ص 202.

(3) راجع ، عثمان أمين ، رواد المثالية ، ص 69 – 70 .

الـذهن نفسه تفسيراً لقوانين الأشياء. وقد وضع كانط الأساس الأول للفلـسفة النقدية حين قرر أن الذهن هو "المشرّع للأشياء" وأن "عالم الأعـيان" أى عالم المادة والأجسام ، بدون الذات العارفة الكلية ، لا يمكـن أن يُعرف ، ومن ثم فكأنه عندنا معدوم لا وجود له. وقد كان هـذا القـرار الكانطـى ثورة فى الفلسفة الحديثة شبهها كانط نفسه بالـثورة التـى قام بها العالم "كوبرنيق" فى علم الفلك ، وتلك الثورة الكوبـرنيقية هى التى تبين معنى المثالية الكانطية ومداها الصحيح ، فلابد للموضوعات لكى تُدرك من أن تظهر فى صور الذهن ، وبينما جـرت المـذاهب المثالية الأخرى على أن ترى العالم الخارجى أو عـالم الأعيان ليس له وجود فى ذاته ، وإنما وجوده فى "الأذهان" ، تـسلم مثالـية كانط بوجود "الظاهرات" ولا تنكر وجود الأشياء فى ذاتهـا ، ولكـنها تثبت من جهة أن تلك الأشياء لما كانت أشياء فى ذاتهـا ، فهـى لا يمكن أن تكون معروفة لنا ، ومن جهة أخرى أن حصول المعرفة يستلزم أن تكون الظاهرات التى هى موضوع تلك المعرفة ، فى الذهن وحده ، ويستلزم أيضاً على وجه الخصوص أن تكون ملائمة للصور التى فيها يتلقاها الذهن أولاً ثم يفهما .

إن تشبيه كانط منهجه بنظرية كوبرنيق تشبيه صحيح لأن ما كـان فى ذهن كانط عن نظرية كوبرنبق ليس أنه أعلن أن الأرض متحـركة حول الشمس وليست ثابتة ، وإنما شيئ آخر فى نظريته.

لقد قال كوبرنبق أيضاً أنه يمكننا تفسير بعض التغيرات التى تطرأ على مدارات الأجرام السماوية لا بحدوث تغيرات فى تلك الأجرام ، وإنما بحدوث تغيرات فى موضع المشاهد –ذلك التغير الناشئ من دورة حركة الأرض ، وأن المشاهد يدور تبعاً لتلك الدورة الأرضية. إن التفسير الصحيح لحركات الأجرام السماوية هو إدراك ما يحدث لنا أنفسنا من تغيرات بتغير وضعنا نحن بالنسبة لتلك الأجرام. تلك النقطة فى نظرية كوبرنبق هى ما كانت فى ذهن كانط وهو يسوق التشبيه[1].

ومن أجل هذا اعترض كانط على وصف مثاليته بأنها "متعالية" أى مجاوزة لعالم الأعيان أو مفارقة للتجربة ، وطالب بأن تسمى مثالية "صورية" بمعنى[2] : أنها تتمثل العقل ملكة مشروعة للأشياء ، وتجعل قوانينه الضرورية الكلية شرطاً لا غنى عنه لإمكان التجربة.

وبتلك النظرية الجديدة استطاع كانط أن يتغلب على التعارض القائم بين العقل والتجربة فى الفلسفات السابقة ، ففى نظريته لم يعد هناك عقل فى جانب وتجربة فى جانب آخر ، بل العقل عنده أصبح "مباطنا" للتجربة "كامناً" وشرطا لها.

---

(1) محمود زيدان ، كانط وفلسفته النظرية ، ص 60.

(2) عثمان أمين ، رواد المثالية ، ص 71.

إن كلمة "متعال" "ترنسندنتالى" عندى لا تشير أبداً إلى العلاقة بـــين معرفتنا وبين الأشياء ، بل إلى علاقة المعرفة بملكة المعرفة ، فتحيل التمثلات البسيطة إلى أشياء[1]. إن مثاليتى المزعومة (النقدية بالمعنـــى الـــصحيح) هى إذن مثالية من جنس خاص جداً لأنها تهدم المثالية المألوفة ، وبفضلها ولأول مرة تكتسب كل معرفة قبلية حتى المعـــرفة الهندســـية حقـــيقة واقعية موضوعية. إن المثالية بمعناها الـــصحيح كانت لها دائماً غاية صوفية ولا يمكن أن تكون لها غاية أخـــرى سواها ، أما مثاليتى فغايتها الوحيدة هى فهم إمكان معرفتنا القبلية من حيث موضوعات التجربة ، وهذه المشكلة ظلت بغير حل حتى الآن ، بل نقول حتى إنها لم تُثر قبل اليوم. ومن هنا تسقط كل مثالـــية صوفية كانت دائماً (كما نتبين من الآن عند أفلاطون) تحاول أن تستدل من معارفنا القبلية (حتى الهندسية) على وجود عيان أُخر غيـــر العيان الحسى (نعنى به العيان العقلى) لأنه لم تكن عندهم أبداً فكرة عن وجود عيان قبلى للحواس[2].

وفـــى نقد كانط للعقل العملى يرى عثمان أمين معه أن العلم والمعـــرفة النظـــرية لا يكفـــيان ، فهـــناك الحياة العملية والأخلاق

---

(1) إمانويل كانط ، مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة يمكن أن تصير علما ، ص 93 – 94.

(2) إمانويل كانط ، مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة يمكن أن تصير علما ، ص 226.

والسلوك ، فيذهب عثمان أمين إلى[1]: أن كانط لا يريد أن يستخلص مذهـــبه الأخلاقى من الميتافيزيقا التى يبين لنا حدودها ، ولا يريد أن يقـــيمه علــــى التجـــربة ، لأن التجربة إنما تسجل ما هو كائن ، ولا تبحث فيما ينبغى أن يكون . والمبدأ الأخلاقى يراه كانط شيئاً واحداً يعـــده الناس خيراً بلا قيد ولا شرط ، وهو "الإرادة الخيّرة" التى هى إرادة العمل بمقتضى "الواجب" دون أى اعتبار آخر. ومعنى هذا أن الواجب يأمرنا أمراً قاطعاً بأن نعمل دون اعتبار لمصلحتنا أو أنانيتنا .. الواجب تكليف بالفعل وإجبار عليه ، والعقل هو الذى يصدر إلينا أمراً كهذا ، إنه العقل متصرفاً إلى الفعل ، هو "العقل العملى" بتعبير كـــانط .. والقانـــون الأخلاقى "أولانى" أى كامن فينا ، ومتقدم على التجربة ، والإرادة الإنسانية حين تعمل على وجه أخلاقى لا تخضع لقـــوة "بـــرانية" خارجـــة عن ماهيتها ، كاللذة أو المصلحة ، وإذن فـــالإرادة لهـــا اســـتقلالها فى تصرفاتها ، وحريتها فى "جوانيتها – بتعبيـــر عـــثمان أمين– وأهم صيغة يصاغ فيها الأمر الجازم هى: "أعمـــل بحـــيث تستطيع أن تجعل باعث عملك قانوناً كلياً" أى قانوناً شـــاملاً يشرع للإنسانية كلها. فالفعل لا يكون أخلاقياً فى نظر العقل العملى ما لم يكن حراً ، أى صادراً عن إرادتنا المستقلة غير خاضع لإرادة خارجية ، وأخلاقية الفعل يجب أن يكون الأمر فيها من إملاء

---

(1) راجع ، عثمان أمين ، رواد المثالية ، ص 73 – 74.

كياننا "الجوانى" ، وهو كيان عقلى طبعاً ، وهذا ما عبرت عنه فلسفة الأخـــلاق عـــند كانط حين صرحت بأن بعض أفعالنا ينبغى أن تعد أوامر إلهية لأنها ملزمة لنا إلزاماً داخلياً (جوانياً).

لم يكن كانط أكبر الفلاسفة الألمان فحسب عند عثمان أمين[1] بـــل علـــم من أعلام الفكر الحديث الغربى ، فهذا الفيلسوف قد فتح للفكر الإنسانى طريقاً جديداً ، الأمر الذى جعل عثمان أمين يرى أن هـــناك تأويلات متجددة لآثار هذا الفيلسوف المثالى الأخلاقى .. فقد كـــان فيلـــسوف القرن الثامن عشر فى أوروبا أحد العباقرة النادرين ممن أنعم الله بهم لاعلى أمتهم وحدها ، بل على الإنسانية كلها .

وفـــى محاولـــة إظهاره للجوانية عند كانط نرى عثمان أمين يـــربط بـــين المثاليتـــين الأفلاطونـــية والكانطـــية فيذهب إلى أنهما ثـــريّتان[2] : فـــإذا كان الفكر مقدم على الوجود ، مشرّع للأشياء ، ونمـــوذج للموضـــوعات ، فإن "إدراك" الوجود هو الوجود نفسه . والحقـــيقة بطبيعـــتها "جوّانـــية" ندركها فى أنفسنا ، ولا سبيل لنا فى الإدراك ســـوى الـــنفس . ولئن يكن سقراط قد قال قولته المشهورة "أعرف نفسك" ، فقد صرح كانط بأن عصرنا لم يعد يريد أن يطول بـــه أمـــد الـــتلذذ بظاهـــر المعرفة وقشورها ، بل يريد أن يمحص

---

(1) راجع عثمان أمين، محاولات فلسفية ، ص265-266.

(2) عثمان أمين ، الجوانية ، ص259.

شرائطها الداخلية وقوانينها الأبدية .

لقـــد شيد كانط مذهبه المثالى "النقدى" بناءً شامخاً على أساس من نقد العقل فى جوانبه الثلاثة : النظر والعمل والذوق . ويرى هذا المذهب أن الأشياء ليست سوى انطباعات حسية أو أفكار ، وتتحقق فـــى الوجـــود باعتـــبارها تمثلات ذهنية .. وعلى ذلك فإن من مآثر المثالـــية الحديثة كما يرى عثمان أمين[1]: أنها قصرت نظرها على الأفكـــار الإنـــسانية وجعلـــت المـــثال كامناً فى الأشياء الخارجية ، والتمـــست وحدة المعرفة فى الوعى الإنسانى ، إذن يتبين أن السمة الأولى فى كل مثالية هى أنها تفسر "الواقع" الذى نواجهه على أنه ذو "معنـــى" وأن لـــه "قـــصداً" وأن فيه "جوانية" خفية من وراء مظهره الخارجى .

ومن أجل هذا كانت الجوانية عند عثمان أمين مرادفة لتزكية الوعـــى الإنـــسانى وكانـــت البرانية مرادفة لطغيان الآلية والتسجيل الإحصائى وسد الخانات.

(1) راجع عثمان أمين ، الجوانية ، ص 255 .

4- فشته :

إذا كـــان عثمان أمين قد وصف محمد عبده بفيلسوف الوعى المـــصرى ، فإن فشته فى نظره هو فيلسوف الوعى القومى الإلمانى ، الـــذى لـــم يقبع فى برج عاجى خاشياً على أفكاره من الانتشار . وبعد أن طال بحث عثمان عن ضالته ، وجدها فى فشته قائلاً[1]: لقد وجـــدت ضالتى بعد أن طال عنها بحثى ، فهذا هو فيلسوف الوعى القومـــى الألمانى كما تراءى لى من قبل أن محمد عبده هو فيلسوف الوعـــى المـــصرى ، ذلك أن فشته كان فيلسوفاً وكان عاملاً فى آن واحـــد ، فلـــم يكـــن من أصحاب الأبراج العاجية الذين يقبعون فى مكـــانهم ، ويخـــشون علـــى أفكارهم من النور والهواء ، فكان قوى الـــذهن متـــين الإرادة نافـــذ البـــصيرة ، وكان كذلك خبيراً بالنفس الإنـــسانية ، يلمـــح نـــوازعها ومطامحها ويلمس مواطن قلقها وهو اجـــسها ، وفـــوق هـــذا أدرك مـــا للأفكار من قوة عجيبة ، وأدرك الوســـائل التى يتيسر بها ربط الأفكار بالعواطف والمشاعر ربطاً لا انفصام له بحيث تصير الأفكار وكأنها قد امتزجت بدم الإنسان .

عوامل كثيرة قد اجتمعت فجعلت سيرة فشته وفلسفته جديرتين بالـــدرس والعـــناية عـــند عثمان أمين[2]: فالفلسفة الفشتية قد برزت

---

(1) عثمان أمين ، الجوانية ، ص 61.

(2) عثمان أمين ، رواد المثالية ، ص 275.

وتألقـــت حين اشتد تأثير الفلسفة "النقدية" فى ألمانيا وفى غيرها من بـــلاد أوروبـــا ، وكان فشته أول من نهض بمهمة شاقة ، هى بسط المـــذهب الكانطـــى وإصلاح أمره ، وأنفق نشاطه الفكرى فى فترة شـــهدت حـــدوث تغيـــرات بعيدة المدى فى الشعب الألمانى ، وهى تغيـــرات أدى فشته فيها دوراً تاريخياً حاسماً ، ولا خلاف اليوم فى أن دراسة آراء فشته منفعة عملية تفوق قيمتها الفلسفية: أنها تبين لنا فـــى جلاء مواضع الاتصال بين فكر الفيلسوف وبين روح عصرنا الحاضـــر ، فقـــد وقع لفشته ما يقع فى الغالب للمفكرين المبتكرين ، أنهم سباقون متقدمون على زمانهم ، وكثير من أفكار هذا الفيلسوف ، إذا هى فهمت على معناها الصحيح بغير تحريف ، لا تزال تجيب عن حاجات كثيرة نحسها الآن إحساسا شديدا.

إن من أكثر مؤلفات فشته تأثير فى عثمان أمين كتابه "نداءات إلـــى الأمـــة الألمانية" الذى[1]: رآه من أفضل ما يمكن أن ننقله من تـــراث الغرب إلى لغتنا العربية ، بل ويجب على أهل الوعى جميعاً فى كل أمة أن يقرأوه قراءة تأمل وتدبر واستقصاء ، فهو من الكتب المـــوجهة الملهمـــة التى تصوغ الأمم وتصهر الشعب ، يتغنى بحب الـــوطن وحب الإنسانية ، ويفيض بالإيمان بالمثل والتفاؤل بالمستقبل ، ويزخـــر بالنـــصح الخـــالص الـــذى يوجهه الفيلسوف إلى قومه

---

(1) راجع ، عثمان أمين ، الجوانية ، ص 61 – 62.

ومعاصـــريه ، وبالزجـــر الـــلاذع الذى يوجهه أحياناً إلى أبناء ذلك الوطن ، وإلى كل متهاون فى حق الإنسانية .. لقد تخيل عثمان أمين بعـــد قراءة هذا الكتاب أن قائداً من قادة الفكر السياسى والاجتماعى عندنا ، مثل عبد الله النديم أو عبد الرحمن الكواكبى أو محمد عبده ، هو الذى يوجه هذه النداءات إلى الأمة العربية ، وأنه سيحملها بسحر بـــيانه علـــى أن تعى نفسها وأن تحتل مكانتها اللائقة فى ركب الأمم الحـــية النابـــضة ، وذلـــك مـــثلما بعث فشته ، بفلسفته الحية ، امته الألمانـــية من رقادها ، فنفخ فيها روح الجهاد حتى هبت مرة واحدة فحطمـــت قـــيود اســـتعبادها وأجلت جيوش الاحتلال الفرنسى عن أراضيها.

ولمـــا تأمـــل عـــثمان أمين فلسفة فشته وجدها تحمل المثالية الألمانـــية ، ومـــن أهـــم خصائص هذه المثالية أنها أثبتت ما للحياة الروحية من استقلال وجوانية ومشروعية ، وجعلت من هذا الإثبات أساساً لنظرة الإنسان إلى العالم ، وأن ما هو جوانى وأصيل فينا هو الـــنور الـــذى يضيئ لأبصارنا ، واعين كنا أو غير واعين ، جميع الأشـــياء فـــى السماء وعلى الأرض.. ولم تقف قدرة فشته عند حد الاستطلاع لأغوار النفس ، تلك القدرة التى هى أشبه بوريد صوفى يغوص إلى أعماق الحياة الجوانية ، بل كان له فوق هذا إرادة صلبة لا تلـــين ، وشـــعور بالكرامة مرهف حاد. وبغير هذه الإرادة وهذا

الــشعور لا يــستطيع المرء أن يمضى فى الدفاع عن ذلك الاعتقاد الراســخ بــأن للرأى الحر حقوقاً خالدة ، وأن للجوانى صدارة على البرانى[1].

وبالبحث أكثر عن الجوانية فى فلسفة فشته ، فإن عثمان أمين يجــدها فــى[2]: الحرية ، تلك التى تمثل المثل الأعلى عند فشته .. والحــرية الصحيحة هى الحرية "الجوانية" أى تلك التى نجد قانونها فــى نفسها ، إنها اتساق واختراع معا ، إنها إخلاص المرء لعقله ، وبذلــه الجهد للتفكير بنفسه ، وأنها ازدهار العقل فى أنفسنا ، وهى أيــضاً تربية وإصلاح لغيرنا ، لأن الحرية الشخصية لا تنفصل عن حــرية الغير: "الإنسان لا يكون إنساناً إلا بين الناس" فلا يصح إذن أن يكــون لــه من غرض سوى تكمّله النفسى ، أو بالأحرى تكمّل الإنــسانية فيه وفى غيره من الناس. إن الحرية هى المبدأ الأعلى ، وهى ماهية الأشياء ، إنها أعلى حتى من الحقيقة ، وإن شئنا قلنا إنها الحقــيقة العليا ، وبهذا نفسه لم تكن الحرية تجريداً ، بل هى الواقع علــى الأصالة ، ولا يمكن أن تكون "معطاة" تجريبية أو "واقعة" هو جاء أو مفروضة ، فالحرية المعطاة الجاهزة المفروضة كما تفرض الوقائع فى العالم الفيزيقى ، لا تكون إلا الجرية الظاهرية البرانية ،

---

(1) راجع ، عثمان أمين ، رواد المثالية ص 276 – 277 .

(2) راجع ، المصدر نفسه ، ص 279 – 280.

إنمـــا الحرية الصحيحة هى تلك التى "تصنع نفسها" أو "تحقق ذاتها" مـــن ذاتها ، وتحقق الذات هو البساطة فى سلسلة من المراحل ، أو هـــو دخـــولها فى نطاق الديمومة ، فتحقق ذاتها فى الزمان ، وعن طـــريق الفكـــر ، أى عـــن طريق التمييز بين ذات تدرك وتعقل ، وموضـــوع هو مدرك ومتعقل ، لكن هذا الموضوع الذى يريه العقل للأنـــا ، والعـــالم الخارجـــى ، واللاأنـــا يتألف بدوره من كثرة من "الانـــيات" أو الأشخاص المتميزة عن شخص ، وإذن فالحرية تتحقق لا من الفرد المنعزل (أو الأنا التجريبية) ، بل من الجماعة الإنسانية ، والأنـــا المثالـــية لكى تصبح واقعية ، تنقسم إلى كثرة من الذوات التاريخية ، وتتحقق من العلاقات الأخلاقية التى تقوم بينها.

الفصل الخامس

نتائج الدراسة

سـجلت فـى معظـم فصول هذا البحث بعض الاستناجات والنـتائج التـى لـم يتحـتم تأجـيلها. وبعد أن استعرضت جوانب الموضـوع ، علىّ الآن أن استخلص النتائج من خلال الإجابة على الأسـئلة التـى طرحتها فى مقدمته ، ويمكن الوقوف على ذلك من خلال النتائج التى أطرحها فيما يلى:

بيّـنت الدراسـة أن "الجوانية" عند عثمان أمين ليست مذهباً فلـسفياً ، بـل هـى طريقة فى التفلسف ، أو فلسفة تحاول أن ترى الأشـخاص والأشـياء رؤية روحية ، فتلتمس "الباطن" دون أن تقنع "بالظاهـر" ، وتبحث عن "الداخل" بعد ملاحظة "الخارج". والطريق إلـى ذلك هى تقديم "الذات" على "الموضوع" والفكر على الوجود ، والإنسان على الأشياء ، والرؤية على المعاينة. وبناءً على ذلك فإن الجوانية تطلب الحقيقة فيما وراء الواقع بقوة روحية تستحث الإنسان علـى الابتكار المتجدد الواعى والسعى الموصول إلى ما ينبغى أن يكـون. فالجوانية فلسفة تستند على تزكية الوعى الإنسانى وممارسة الحرية النفسية ، وتسعى إلى تعميق فهمنا للمقاصد والمعانى والقيم.

وبالـبحث عن الأسس والمبادئ التى قامت عليها الجوانية فى كـتابات عـثمان أمين ، أوضحت الدراسة كيف أصّل عثمان أمين معنـى الجوانـية فى الفكر الإسلامى ، وابتدأ بالقرآن الكريم والسنة النـبوية المطهـرة ، فالصورة التى يرسمها القرآن والحديث لحياة

الإنـــسان على الأرض صورة مثالية وواقعية معاً ، إنها صورة حياة ملؤها الجهود الموصولة للإصلاح الداخلى ، أى الإصلاح الروحى ، والإصلاح الخارجى ، أى الإصلاح المادى ، وإصلاح النفس معناه إصلاح العقيدة ، والتغيير الجوانى أصعب جداً من التغيير البرانى ، لأن الأول منـــصب علـــى تغييـــر الأخلاق والعقليات ، فى حين أن الثانـــى ينـــصب علـــى تغيير المراسم والأشكال والنظم الخارجية. والقرآن الكريم حافل بالآيات البيّنات المعبرة عن هذا النظر الجوانى النافذ إلى جوهر الأشياء والأشخاص ويعتد القرآن أكبر اعتداد بالنية التـــى صدرت عنها الأفعال ، ويلح على الإخلاص المصاحب لإقامة الشعائر ، ويرى أن فعل الإنسان إذا ساورته شبهة باعث من بواعث العُجـــب أو الأنانـــية أو الرياء تجرد عن الحقيقة وأصبح مظهراً أو زيفاً مصداقاً لقوله جلّ وعلى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ و ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾. فالقصد الحقيقى والنية الجوانية هما المحك الصادق للحكم على الأشخاص والأشياء ، وهما معيار القيمة فى الأقوال والأفعال.

وقـــد عبـــر الرسول ﷺ عن هذا المعنى العميق فى كثير من أحاديثه كقوله ﷺ: (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلـــى قلـــوبكم وأعمـــالكم). فالتقابل هنا واضح صريح بين المظهر والمخبـــر ، وبين العرض والجوهر فـــ (لا يؤمن أحدكم حتى يكون

هــواه تابعــاً لما جئت به). وتعريف الرسول ﷺ للمجاهد والمهاجر يــشير إلى أهمية العنصر النفسى الجوانى فى تحقيق المعانى الدينية تحقيقاً صحيحاً فــ (المجاهد من جاهد نفسه) ، و (المهاجر من هجر مــا نهى الله عنه) ، ولا ريب أن جهاد النفس ، وهو جهاد جوانى ، أصــعب مــن جهاد الغير ، ولذلك سماه الرسول ﷺ "الجهاد الأكبر" لأنه يقتضى عملاً دائباً وجهداً متواصلاً لمغالبة هوى النفس.

وأوضــحت الدراســة كيف أن عثمان أمين لم يكتف بتأصيل معنــى الجوانية واستلهام معناها واستشفافه من القرآن الكريم والسنة النــبوية ، بــل بحــث عنه ، وفرق بين "الجوانية" و "البرانية" لدى الصحابة والتابعين والفقهاء ، والطوائف الإسلامية ، خاصة الصوفية منها ، والمفكرين الإسلاميين بصفة عامة ، فوجد معنا للجوانية عند الخليفة الثانى عمر بن الخطاب ، وغيره من الصحابة ، وكذلك إمام التابعــين الحــسن البصرى ، والإمام أبى حنيفة ، ليعرج منهم إلى الإمــام أبــى حامــد الغزالى الذى وجد فيه عثمان أمين ضالته فيما يحاول الكشف عنه من الفرق بين "البرانى" و "الجوانى" ، هذا الفرق الذى جلاه الغزالى بتحليل نفسى دقيق حين أشار إلى شدة الاختلاف بــين مقايــيس الأبدى ومقاييس الزمانى ، أو بُعد الهوة بين المعرفة المكانــية البــرانية وبين المعرفة الكشفية الجوانية ، وكذلك الموازنة بين عين البصر وعين الروح ، فالبصر لا يدرك ذاته ، ولكن الروح

مدركـــة لـــذاتها ، والبصر لا يرى من وراء الحُجب ، فى حين أن الـــروح تكشف حقائق الأشياء وتُرفع عنها الحُجب . والبصر يدرك فـــى الأشـــياء مـــا ظهر منها ، بينما الروح تدرك كنهها وحقيقتها. والبصر لا يرى إلا جزءً يسيراً من الوجود ، فى حين أن الروح هى الوجود بأسره.

ومـــن الغزالـــى انـــتقل عثمان أمين ببحثه عن الجوانية إلى الـــصوفية ، فحـــاول أن يبين أن كثيراً من أحوال ومقامات الصوفية تعد "جوانية" خالصة ، فحال المراقبة والمحاسبة من المعانى الجوانية العميقة ، لأن المراقبة علم العبد باطلاع الرب سبحانه وتعالى عليه ، واستدامته لهذا العلم مراقبة لربه ، وهذا أصل كل خير له. والمراقبة من أوائل أعمال الباطن (الجوانى) بعد إعمار الظاهر ، بل هى الأداة الأساسية لأعمال الباطن ، فالعبد السالك فى طريق الآخرة يُحصل ما أُمـــر به فى ظاهره ، ثم يجلس على بساط المراقبة ويأخذ بالتخليص فـــى باطـــنه حتى لا يبقى فيه شيئ نهاه عنه ربه المطلع على جميع أحـــوال قلبه وضميره. وكذلك يعد الإخلاص من المعانى الجوانية ، حـــيث إن معـــناه أن يكون ظاهر الإنسان وباطنه وسكونه وحركاته خالـــصة لله ، فلا يشوبه حظ النفس ، ولا هوى ولا خلق ولا طمع ، والإخلاص ضد الرياء ونقيضه ، فالمرائى يعمل ليرى ، والمخلص يعمـــل ليصل ، والإخلاص مرتبط بعزم وإرادة ومشيئة ونية العبد ،

فـــإذا اتحـــدت جميعا كان الإخلاص نوراً من نور الله استودعه قلب عـــبده المـــؤمن ، فقطعه به عن غيره ، وبذلك يكون الإخلاص من أعمال القلوب (الجوانية) التى لا يطلع عليها إلا الله تبارك وتعالى .

وكذلك يُعد "الورع" من المعانى "الجوانية" الأصيلة التى ترتبط بـــباطن المـــرء ، لا بظاهره "البرانى". والورع مصطلح نبوى ورد بلفظـــه على لسانه ﷺ حينما قال: "كن ورعاً تكن أعبد الناس ، وكن قـــنعا تكـــن أشـــكر الناس .." و "استفت قلبك ، البر ما أطمأنت إليه الـــنفس وأطمـــأن إلـــيه القلب ، والإثم ما حاك فى النفس وتردد فى الـــصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك". فلا شك أن كلامه ﷺ مع ما فيه مـــن الدلالة على الأمر بالورع والتورع ، فإنه يُعد مقياساً (جوانياً) يختبـــر بـــه العـــبد قلبه ، فإن كان يطمئن للبر والتقوى ، وينفر عن المعـــصية ، فهو قلب صالح ، وإن كان دون ذلك ، فهو بحاجة إلى تزكية وإصلاح الباطن (الجوانى).

وانـــتقلت الدراســـة مع عثمان من البحث عن "الجوانية" عند الـــصوفية إلـــى البحث عنها فى الفكر العربى الإسلامى المعاصر ، لـــتجد عـــثمان أمـــين يـــصف محمد عبده برسول من رسل الوعى الإنـــسانى الـــذى ما زال فكره ملهماً للحياة الروحية فى بلادنا وفى أكثر البلاد الإسلامية . ولقد أوضحت الدراسة أن منهج عثمان أمين فـــى دراســـة الإمـــام محمد عبده يقترب من منهج الفيلسوف هنرى

برجسون ، وقوامه بذل غاية الجهد للفهم الحدسى والتعاطف العقلى والمشاركة من الداخل. وهذا الجهد "الجوانى" عند عثمان أمين ضرورى لكل بحث قويم ، ولكل ثقافة عميقة ، ولكل مسمى صادق. ورأى عثمان أمين أن الخطوة الأولى لمحمد عبده كفيلسوف هى تنبيه الوجدان ، وإيقاظ الضمير ، وبذلك تقترب فلسفة محمد عبده بوجه من الوجوه من "الجوانية". ففلسفة الإمام لا تفضى إلى مذهب من الصيغ اللفظية والمجردات الذهنية ، بل هى دراسة "ديناميكية" حية نابضة ، قوامها مجهود الفكر للنفوذ إلى الوجود والوصول إلى لب الأشياء (الجوانى) ، لا ظاهرها (البرانى) فحسب.

واستمراراً فى الإجابة على التساؤل عن الأسس والمبادئ التى قامت عليها "الجوانية" فى كتابات عثمان أمين ، وعن منابعها ، انتقلت الدراسة مع عثمان أمين بعد تأصيل معنى الجوانية فى الفكر الإسلامى بدءاً من القرآن والسنة ، وانتهاءً بفكر الإمام محمد عبده ، انتقلت إلى البحث عن الجوانية فى الفكر الغربى ، فوجدت عثمان أمين يستلهمها مما يلى:

رأى عثمان أمين أن فلسفة ديكارت فلسفة ثورية تحمل فى طياتها معانى الجوانية التى ينادى بها من حيث إنها فلسفة تعلى من سيطرة النفس على انفعالاتها ، وسيادتها على خارج الإنسان. قال ديكارت للإنسان خير ما يمكن أن يقال له : "لا تقبل شيئاً على أنه

حـــق ما لم تتبين بنور الفطرة وبداهة العقل أنه حق". وقال له أولاً: "أنت تفكر ، فأنت إذن موجود". وقال له أخيراً: "أفاكنت حر ، فأنت إذن مـــسئول". وإذن فالنظـــر الميتافيزيقى الخالص يقربنا من حقيقة الأشخاص ويدنيننا من كينونة العالم ، خلافاً للنظر التحليلى المنطقى أو التجريبـــى الحسى. فما كان لهذه الفلسفة الديكارتية لتقنع بالوقوف عند التأمل والنظر المتجدد ، كما كان شأن الفلسفات السابقة عليها ، وإنمـــا أرادت أن تمـــضى إلى العمل والتطبيق ، رامية إلى التغيير الجـــذرى ، فلـــيس الغـــرض من المعرفة عند أبى الفلسفة الحديثة اكتـــساب الحكمة والتبصر فى الأمور فحسب ، بل أن ندبر سلوكنا ، وأن نـــسيطر علـــى أبدانـــنا ، بمعنى أن تقدم الفلسفة للإنسان طريقاً للحـــياة جديـــدة ، تهيئ له أن يملك زمام نفسه عن طريق فن عقلى لضبطها والتحكم فيها ، وأن يهيمن على الطبيعة عن طريق تعقيلها. ولمـــا تبـــين أن تحقـــيق هذين المطلبين مما يحتاج إلى أجيال عديدة والـــناس محتاجون إلى هداية سريعة ، رأى ديكارت أن نكتفى مؤقتاً بتقـــبل الأشـــياء التى لا نستطيع تغييرها أو لا طاقة لنا عليها ، وأن نلجأ إلى الحيلة و "الاستراتيجية" فى السيطرة على الانفعالات النفسية ، وهـــنا تتجلى الجوانية الديكارتية عن طريق هذه السيادة الداخلية ، سيادة النفس التى يستطيع بها كل أمرئ أن ينظر إلى العالم الحديث.

وفى محاولة إظهاره للجوانية عند كانط رأت الدراسة عثمان

أمـــين يربط بين المثاليتين الأفلاطونية والكانطية ، فيذهب إلى أنهما شـــريتان ، فإذا كان الفكر مقدم على الوجود ، مشرّع للأشياء ، فإن "إدراك" الوجـــود هـــو الوجـــود نفسه ، والحقيقة بطبيعتها "جوانية" ندركها فى أنفسها ، ولا سبيل لنا فى الإدراك سوى النفس. ولئن يكن سقراط قد قال قولته المشهورة "أعرف نفسك" ، فقد صرح كانط بأن عصرنا لم يعد يريد أن يطول به أمد التلذذ بظاهر المعرفة وقشورها ، بـــل يريد أن يمحص شرائطها الداخلية وقوانينها الأبدية. لقد شيد كانط مذهبه المثالى النقدى" بناءً شامخاً على أساس من نقد العقل فى جوانبه الثلاثة: النظر والعمل والذوق. ويرى هذا المذهب أن الأشياء ليـــست ســـوى انطـــباعات حـــسية أو أفكار ، وتتحقق فى الوجود باعتـــبارها تمثلات ذهنية .. وعلى ذلك فإن من مآثر المثالية الحديثة كمـــا يـــرى عثمان أمين أنها قصرت نظرها على الأفكار الإنسانية وجعلـــت المثال كامناً فى الأشياء الخارجية ،والتمست وحدة المعرفة فـــى الوعى الإنسانى ، إذ يتبين أن السمة الأولى فى كل مثالية هى أنهـــا تفـــسر "الواقع" الذى تواجه على أنه ذو "معنى" وأن له "قصداً" وأن فـــيه "جوانـــية" خفية من وراء مظهره الخارجى. ويبتدئ منهج كـــانط -كما يرى عثمان أمين- من الوقائع المقررة أو "المعطيات" ، ثم يتجه إلى التحليل لكى نستخلص منها عناصرها "الأولانية" المكونة لهـــا. وهـــذا التحليل ليس تحليلاً منطقياً أو سيكولوجيا صرفاً ، كما

تـوهم بعـض المحدثين ، وإنما هو تحليل "ترانسنذنتالى" باصطلاح كـانط ، بمعنـى أنه شارطى ، كامن و "جوانى" ، باصطلاح عثمان أمـين ، أى أن يحـدد "أولانيا" (أى عقلياً ، مبدائياً وقبل كل تجربة) الـشروط التـى تجعل معرفتنا "ممكنة" ، وأن يرسم فى الوقت نفسه مـدى هـذه المعـرفة وحدودها. فطابع النقد الكانطى هو ما سمى بالصورة الجوانية.

وإذا كان عثمان أمين قد وصف محمد عبده بفيلسوف الوعى المـصرى ، فإن فشته فى نظره هو فيلسوف الوعى القومى الإلمانى الـذى وجد فيه عثمان ضالته بعد أن طال بحثه عنها ، فوجد فلسفة فـشته تحمل المثالية الألمانية ، ومن أهم خصائص هذه المثالية أنها أثبـتت ما للحياة الروحية من استقلال وجوانية ومشروعية ، وجعلت من هذا الإثبات أساساً لنظرة الإنسان إلى العالم ، وأن ما هو جوانى وأصـيل فيـنا هو النور الذى يضيئ لأبصارنا ، واعين كنا أو غير واعـين ، جميع الأشياء فى السماء وعلى الأرض.. ولم تقف قدرة فـشته عند حد الاستطلاع لأغوار النفس ، تلك القدرة التى هى أشبه بـوريد صوفى يغوص إلى أعماق الحياة الجوانية ، بل كان له فوق هـذا إرادة صلبة لا تلين ، وشعور بالكرامة مرهف حاد. وبغير هذه الإرادة وهذا الشعور لا يستطيع المرء أن يمضى فى الدماغ عن ذلك الاعتقاد الراسخ بأن للرأى الحر حقوقاً خالدة ، وأن للجوانى صدارة

علـــى البرانى. وبالبحث أكثر عن الجوانية فى فلسفة فشته ، انتهت الدراســة إلـــى أن عثمان أمين وجدها فى الحرية ، تلك التى تمثل المثل الأعلى عند فشته ... والحرية الصحيحة هى الحرية "الجوانية" أى تلــك التى نجد قانونها فى نفسها ، إنها ازدهار العقل فى أنفسنا ، وهى أيضاً تربية وإصلاح لغيرنا ، لأن الحرية الشخصية لا تنفصل عن حرية الغير ، فالإنسان لا يكون إنساناً إلا بين الناس .. والحرية هى المبدأ الأعلى ، وهى ماهية الأشياء ، إنها أعلى حتى من الحقيقة ، إن شئنا قلنا إنها الحقيقة العليا.

وفـــى محاولـــة الإجابـــة على السؤال الأخير من الدراسة ، والخاص بالتساؤل عما إذا كانت للجوانية عند عثمان أمين من سمات تميـــزها عن غيرها من الفلسفات المعاصرة ، تنتهى الدراسة بتحديد هذه السمات فى نقاط محددة فيما يلى :

الجوانـــية فلسفة : الجوانية عند عثمان أمين فلسفة أو طريقة فـــى التفلسف ، طريقة مفتوحة على النفس وعلى الدنيا ، تحاول أن ترى الأشخاص والأشياء رؤية روحية ، أى تنظر إلى "المخبر" ولا تقـــف عند "المظهر" وتلتمس "الباطن" دون أن تقنع "بالظاهر" وتبحث عـــن الـــداخل بعـــد ملاحظة الخارج . إنها فلسفة تستند على تزكية الوعـــى الإنـــسانى وممارســـة الحرية النفسية ، وهى بذلك تمارس الوظيفة الفلسفية على الأصالة: التماس اللُب والمبدأ والكيف والحق .

الجوانـــية طـــريقة روحية تطلب الحقيقة فيما وراء الواقع :

ينـــتج مـــن النقطة السابقة أن الجوانية عند عثمان أمين هى طريقة روحـــية تحـــاول سبر أغوار الباطن ، وعدم الاكتفاء بالوقوف عند الظاهـــر ، وألا تقف عند حدود الكم والمشاهدة والعرض والعيان ، والكـــيف ، والقـــيمة والماهـــية . فالجوانية تطلب الحقيقة فيما وراء الواقع ، ولا تزعم لنفسها القدرة أو الرغبة فى امتلاكها ، لأن الحقيقة متـــى خيل إلينا أننا امتلكناها ، فقدت مشروعيتها فى أن تكون حقيقة أى أن تكـــون هى القوة الروحية التى تستحث الإنسان على الابتكار المتجدد الواعى والسعى الموصول إلى ما ينبغى أن يكون .. إن أية الحقـــيقة وبـــرهانها كامنان فيها ، وإنها "فكرة" تقوم فى لب الوجود الواقع ، والجوانية تبحث فى هذا اللب .

الجوانـــية صـــورة حـــية للإصـــلاح الباطنى : وهذا المعنى اســـتلهمه عـــثمان أمين من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، فالقـــرآن الكريم حافل بالآيات المعبرة عن هذا النظر الجوانى النافذ إلـــى جوهر الأشياء والأشخاص ، فالقرآن يعتد أكبر الاعتداد بالنية التـــى تصدر عنها الأفعال ، ويلح على الإخلاص المصاحب لإقامة الشعائر ، ويرى أن فعل الإنسان إذا ساورته شبهه باعث من بواعث العجُـــب أو الأنانـــية أو الـــرياء ، تجرد عن الحقيقة وأصبح مظهراً وزيفـــاً ، وقد قدم الحديث النبوى روائع التمثيل الجوانى القائم على

الاعتـــناء بالباطن وبالقلب ، كما أن المثل الأعلى للأخلاق الإسلامية يتمـــثل فـــى الإرادة الحازمة التى تقتضى مجاهدة النفس والسيطرة عليها ، وقمع شهواتها . وتعريف النبى ﷺ للمجاهد والمهاجر تعريف يــشير إلى أهمية العنصر النفسى الجوانى فى تحقيق المعانى الدينية تحقــيقاً صـــحيحاً . ولا ريـــب أن جهاد النفس – وهو جهاد جوانى أصـــعب من جهاد الغير ، ولذلك سماه الرسول ﷺ "الجهاد الأكبر " لأنه يقتضى عملاً دائباً وجهداً متواصلاً لمغالبة هوى النفس . والنبى ﷺ دائم الذكر والتنبيه إلى أن القيمة العليا إنما تكون للعنصر الجوانى ، والإخلاص "**إنما الأعمال بالنيات**" وإن ضمير الإنسان ليشهد عليه ، وإن كـــان مـــوقفه أمـــام الناس سليماً . أما الرياء وإرضاء الناس فيــسميه النبى ﷺ بالشرك الأصغر . فالقصد الحقيقى والنية الجوانية همـــا المحك الصادق للحكم على الأشخاص والأشياء ، وهما معيار القيمة فى الأقوال والأفعال.

الجوانـــية مثالـــية واعية : إن القيم التى تستند إليها الجوانية هـــى قيم روحية أبدية ، لا زمانية . والجوانية لا تطلب من الإنسان فـــى حياته أن يجعل المادة روحاً ، ولا الزمانى أبدياً ، وإنما تطلب مـــنه أن يـــبذل الجهد أولاً ، ارتفاعاً عن الواقع والراهن والمباشر ، والتعالـــى عـــن بـــواعث المادة والصبر على مكاره الزمان ، حتى يتعـــرض لـــنفحات الـــروح ويستقبل بوارق الإلهام . وبذلك تظهر

الجوانـــية كمثالـــية واعـــية تقوم على التجربة الإنسانية المفتوحة ، وتنظـــر إلى ماهية الإنسان على أنها مهمة لا متناهية . ولذلك تكون قـــيم الجوانية كلها قيماً روحية مثالية ، تبتغى حقيقة ما يكون ، وما هو مطلق ، وما هو شرط غير مشروط ، وما هو ابدى لا زمانى .

الجوانـــية رؤيـــة واعية : من حيث هى الرؤية الحسية ، بل هـــى رؤية روحية نفسية ، رؤية بالعين "الداخلية" أو "عين البصيرة" كما يقول الغزالى وهذه الرؤية الإنسانية الواعية التى تسجل لحظات الإلهـــام الداخلـــى إنما تتجلى فيها حكمة الإنسان ورويته فى معرفة الأشـــخاص والأفكار معرفة ميتافيزيقية صحيحة ، أى معرفتها عن طريق "المبادئ" ومن الداخل ، أو بضرب من "الإئتناس" بها وبحدث تأليفى فريد يكشف لنا عن ماهيتها .

والجوانية رؤية واعية تتمثل فى خير ما قاله ديكارت للإنسان "لا تقبل شيئاً على أنه حق ما لم تتبين بنور الفطرة وبداهة العقل أنه حـــق".. وتجعلنا نفرق بين حقيقة عرفنا رسومها وحفظناها ، وحقيقة مـــلأت قلوبـــنا وعـــشناها .. والحقيقة بطبيعتها "جوانية" ندركها فى أنفسنا ولا سبيل لنا فى الإدراك سوى النفس أو الروح .



أهم المصادر والمراجع

1- دكتور عثمان أمين : الجوانية أصول عقيدة وفلسفة ثورة ، طبعة 1964.

2- .... : ديكارت ، الطبعة الخامسة ، مكتبة القاهرة الحديثة 1958.

3- .... : رائد الفكر المصرى محمد عبده ، طبعة المجلس الأعلى للثقافة (د.ت).

4- .... : رواد المثالية فى الفلسفة الغربية ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة (د.ت).

5- .... : لمحات من الفكر الفرنسى ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الأولى 1970.

6- .... : محاولات فلسفية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة 1952.

7- أبو حامد الغزالى : إحياء علوم الدين ، تحقيق أبى حفص سيد إبراهيم ، دار الحديث ، القاهرة 1419 هـ ، 1998 م.

8- .... : مكاشفة القلوب المقرب إلى حضرة علام الغيوب ، تحقيق أبى عبد الرحمن صلاح محمد عويضة ، دار المنار (د.ت).

9- .... : منهاج العابدين ، تحقيق خالد حربى ، ط الأولى ، دار الوفاء ، الإسكندرية 2007.

10- أمانويل كانط : مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة يمكن أن تصير علمـــا ، ترجمة نازلى إسماعيل ، مراجعة عبد الرحمن بدوى ، دار الكتاب العربى ، القاهرة 1968.

11- رينه ديكارت : الـــتأملات فـــى الفلـــسفة الأولى ، ترجمة عـــثمان أمين ، ط الثانية ، مكتبة القاهرة الحديثة 1956.

12- …………… : مقالة فى الطريقة ، ترجمة جميل صليبا ، ط الثانية ، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع ، بيروت 1970.

13- دكـــتور حـــسن الشرقاوى : الحكـــومة الباطنـــية ، ط الثانـــية ، دار المعارف 1998.

14- …………… : الأخلاق الإسلامية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية 1999.

15- دكـــتور خالـــد حربى : شهيد الخوف الإلهى الحسن البصرى ، ط الثانية ، دار الوفاء ، الإسكندرية 2006.

16- دكـــتور محمـــد على أبو ريان : تـــاريخ الفكر الفلسفى ، الفلسفة الحديثة ، دار المعـــرفة الجامعـــية ، الإســـكندرية 1996.

17- .... : الحـــركة الـــصوفية فـــى الإســـلام ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية 1990.

18- دكـــتور محمود فهمى زيدان : كـــانط وفلسفته النظرية ، ط الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة 1979.

فهرست الكتاب

أعمال الدكتور خالد حربى

1- بُرء ساعة	: للرازى (دراسة وتحقيق) ، دار ملتقى الفكر، الإسكندرية 1999، الطبعة الثانية ، دار الوفاء 2006 .
2- نشأة الإسكندرية وتواصل نهضتها العلمية.	: الطبعة الأولى ، دار ملتقى الفكر ، الإسكندرية 1999.
3- أبو بكر الرازى حجة الطب فى العالم	: الطبعة الأولى ، دار ملتقى الفكر ، الإسكندرية 1999 ، الطبعة الثانية ، دار الوفاء ، الإسكندرية 2006.
4- خلاصة التداوى بالغذاء والأعشاب	: الطبعة الأولى ، دار ملتقى الفكر الإسكندرية 1999- الطبعة الثانية 2000، توزيع مؤسسة أخبار اليوم ، الطبعة الثالثة دار الوفاء ، الإسكندرية 2006 .
5- الأسس الابستمولوجية لتاريخ الطب العربي	: دار الثقافة العلمية،الإسكندرية 2001 ، الطبعة الثانية ، دار الوفاء ، الإسكندرية 2005.
6- الرازى فى حضارة العرب	: (ترجمة وتقديم وتعليق)، دار الثقافة العلمية، الإسكندرية 2002.
7- سر صناعة الطب	: للرازى (دراسة وتحقيق)، دار الثقافة العلمية الإسكندرية 2002 ، الطبعة الثانية، دار الوفاء، الإسكندرية 2005.
8- كتاب التجارب	: للرازى (دراسة وتحقيق)، دار الثقافة العلمية، الإسكندرية 2002 ، الطبعة الثانية دار الوفاء الإسكندرية 2006.
9- جراب المجربات وخزانة الأطباء	: للرازى (دراسة وتحقيق)، دار الثقافة العلمية، الإسكندرية 2000، الطبعة الثانية دار الوفاء الإسكندرية 2006.
10- المدارس الفلسفية فى الفكر الإسلامى(1" الكندى والفارابي"	: الطبعة الأولى منشأة المعارف، الإسكندرية 2003 . الطبعة الثانية ، المكتب الجامعى الحديث ، الإسكندرية 2009.
11- دراسات فى الفكر العلمى المعاصر (1) علم المنطق الرياضى	: الطبعة الأولى ، دار الوفاء ، الإسكندرية 2003 .

12- دراسات فى الفكر العلمى المعاصر (2) الغائية والحتمية وأثرهما فى الفعل الإنسانى : الطبعة الأولى ، دار الوفاء ، الإسكندرية 2003 .

13- دراسات فى الفكر العلمى المعاصر (3) إنسان العصر بين البيولوجيا والهندسة الوراثية . : الطبعة الأولى ، دار الوفاء ، الإسكندرية2003 .

14- الأخلاق بين الفكرين الإسلامى والغربى :الطبعة الأولى منشأة المعارف، الإسكندرية 2003. الطبعة الثانية ، المكتب الجامعى الحديث ، الإسكندرية 2009.

15- العولمة بين الفكرين الإسلامى والغربى "دراسة مقارنة" : الطبعة الأولى ، منشأة المعارف ، الإسكندرية 2003 ، الطبعة الثانية دار الوفاء ، الإسكندرية 2007 ، الطبعة الثالثة ، المكتب الجامعى الحديث ، الإسكندرية 2010 .

16- العولمة وأبعادها . : مشاركة فى كتاب "رسالة المسلم المعاصر فى حقبة العولمة" ، الصادر عن وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة قطر - مركز البحوث والدراسات ، رمضان 1424 ، أكتوبر - نوفمبر 2003.

17- الفكر الفلسفى اليونانى وأثره فى الفكر الإسلامى : الطبعة الأولى ، دار الوفاء ، الإسكندرية 2003 ، الطبعة الثانية ، المكتب الجامعى الحديث ، الإسكندرية 2009.

18- ملامح الفكر السياسى فى الإسلام : الطبعة الأولى دار الوفاء ، الإسكندرية 2003 ، الطبعة الثانية ، المكتب الجامعى الحديث ، الإسكندرية 2009.

19- دور الاستشراق فى موقف الغرب من الإسلام وحضارته (بالإنجليزية) : الطبعة الأولى دار الثقافة العلمية، الإسكندرية، 2003 .

20- شهيد الخوف الإلهى ، الحسن البصري : الطبعة الأولى دار الوفاء ، الإسكندرية 2003 ، الطبعة الثانية ، دار الوفاء ، الإسكندرية 2006 .

21- دراسات فى التصوف الإسلامى : الطبعة الأولى دار الوفاء ، الإسكندرية 2003 .

22- بنية الجماعات العلمية العربية الإسلامية : الطبعة الأولى دار الوفاء ، الإسكندرية 2004.

23- نماذج لعلوم الحضارة الإسلامية وأثرها فى الآخر : الطبعة الأولى ، دار الوفاء ، الإسكندرية 2005 .

24- مقالة فى النقرس للرازى (دارسة وتحقيق). : الطبعة الأولى، دار الوفاء، الإسكندرية 2005، الطبعة الثانية ، المكتب الجامعى الحديث ، الإسكندرية 2009.

25- التراث المخطوط: رؤية فى التبصير والفهم(1) علوم الدين لحجة الإسلام أبى حامد الغزالى. : الطبعة الأولى، دار الوفاء، الإسكندرية 2005.

26- التراث المخطوط: رؤية فى التبصير والفهم (2) المنطق. : الطبعة الأولى، دار الوفاء، الإسكندرية 2005.

27- علوم حضارة الإسلام ودورها فى الحضارة الإنسانية : الطبعة الأولى ، سلسلة كتاب الأمة ، قطر 2005.

28- علم الحوار العربى الإسلامى "آدابه وأصوله". الطبعة الأولى ، دار الوفاء ، الإسكندرية 2006.

29- المسلمون والآخر حوار وتفاهم وتبادل حضارى . : الطبعة الأولى ،دار الوفاء،الإسكندرية 2006.الطبعة الثانيةالمكتب الجامعى الحديث، الإسكندرية 2009.

30- الأُسر العلمية ظاهرة فريدة فى الحضارة الإسلامية . : الطبعة الأولى ، دار الوفاء، الإسكندرية 2006، الطبعة الثانية ، المكتب الجامعى الحديث ، الإسكندرية 2009.

31- العبث بتراث الأمة فصول متوالية (1) . : الطبعة الأولى ، الإسكندرية 2006 ، الطبعة الثانية ، الإسكندرية 2008.

32-العبث بتراث الأمة (2) مائية الأثر الذى فى وجه القمر للحسن بن الهيثم فى الدراسات المعاصرة . : الطبعة الأولى ، الإسكندرية 2006.

33- منهاج العابدين لحجة الإسلام الإمام أبى حامد الغزالى (دراسة وتحقيق) : الطبعة الأولى، دار الوفاء، الإسكندرية 2007 ، الطبعة الثانية ، المكتب الجامعى الحديث، الإسكندرية 2010.

34- إبداع الطب النفسى العربى الإسلامى ، دراسة مقارنة بالعلم الحديث . :الطبعة الأولى ، المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية ، الكويت 2007.

35- مخطوطات الطب والصيدلة بين الإسكندرية والكويت : الطبعة الأولـى ، دار الوفـاء ، الإسـكندرية 2007.

36- مقدمـة فـى علـم "الحـوار" الإسلامى : الطبعة الأولى ، المكتب الجـامعى الحـديث ، الإسكندرية 2009.

37- تاريخ كيمبردج للإسلام ، العلم (ترجمه وتقديم وتعليق) الطبعة الأولى، المكتـب الجـامعى الحـديث ، الإسكندرية 2009.

38- علوم الحضارة الإسـلامية ودورها فى الحضارة الإنسانية : الطبعة الأولى ، المكتب الجـامعى الحـديث ، الإسكندرية 2009.

39- دور الحضارة الإسلامية فى حفـظ تراث الحـضارة اليونانيـة (1) أبقـراط "إعادة اكتشف لمؤلفات مفقودة". : الطبعة الأولى ، المكتب الجـامعى الحـديث ، الإسكندرية 2009.

40- دور الحضارة الإسلامية فى حفـظ تراث الحضارة اليونانيـة (2) جـالينوس "إعادة اكتشف لمؤلفات مفقودة". : الطبعة الأولى ، المكتب الجـامعى الحـديث ، الإسكندرية 2009.

41- مدارس علـم الكـلام فـى الفكـر الإسلامى المعتزلة والأشاعرة : الطبعة الأولى ، المكتب الجـامعى الحـديث ، الإسكندرية 2009.

42- أعلام الطب فى الحضارة الإسلامية (1) تياذوق، إعادة اكتـشاف لنـصوص مجهولة ومفقودة : الطبعة الأولى، دار الوفاء الإسكندرية 2010.

43-أعلام الطب فى الحضارة الإسلامية (2) ماسرجويه البصرى، إعادة اكتـشاف لنصوص مجهولة ومفقودة : الطبعـة الأولـى، دار الوفـاء، الإسـكندرية 2010.

44-أعلام الطب فى الحضارة الإسلامية (3) عيسى بن حكـم، إعـادة اكتـشاف لنصوص مجهولة ومفقودة : الطبعـة الأولـى، دار الوفـاء، الإسـكندرية 2010.

45-أعلام الطب فى الحضارة الإسلامية (4) عبدوس، إعادة اكتـشاف لنـصوص مجهولة ومفقودة : الطبعـة الأولـى، دار الوفـاء، الإسـكندرية 2010.

46-أعلام الطب فى الحضارة الإسلامية (5) الساهـر، إعادة اكتشاف لنـصوص مجهولة ومفقودة : الطبعـة الأولـى، دار الوفـاء، الإسـكندرية 2010.

47-أعلام الطب فى الحضارة الإسلامية (6) آل بختيشوع، إعادة اكتشاف لنصوص مجهولة ومفقودة : الطبعة الأولى ، دار الوفاء ، الإسكندرية 2010.

48-أعلام الطب فى الحضارة الإسلامية (7) الطبرى، إعادة اكتشاف لنصوص مجهولة ومفقودة : الطبعة الأولى ، دار الوفاء ، الإسكندرية 2010.

49-أعلام للطب فى الحضارة الإسلامية (8) يحيى بن ماسويه، إعادة لكتشاف لنصوص مجهولة ومفقودة : الطبعة الأولى ، دار الوفاء، الإسكندرية 2010.

50-أعلام للطب فى الحضارة الإسلامية (9) حنين بن اسحق، إعادة لكتشاف لنصوص مجهولة ومفقودة : الطبعة الأولى، دار الوفاء، الإسكندرية 2010.

51-أعلام الطب فى الحضارة الإسلامية (10) اسحق بن حنين، إعادة اكتشاف لنصوص مجهولة ومفقودة : الطبعة الأولى، دار الوفاء، الإسكندرية 2010.

52- طب العيون فى الحضارة الإسلامية"أسس و اكتشافات" :الطبعة الأولى المكتب الجامعى الحديث ، الإسكندرية 2010.

53-علم الحوار الإسلامى : كتاب المجلة العربية العدد412 المملكة العربية السعودية ابريل2001 .

54-الطب النفسى فى الحضارة الإسلامية"تنظير وتأسيس وإبداع" : الطبعة الأولى المكتب الجامعى الحديث ، الإسكندرية2011.

55- دور الحضارة الإسلامية فى حفظ تراث الحضارة اليونانية (4) روفس الأفسسى ، إعادة اكتشاف لمؤلفات مفقودة الطبعة الأولى ، المكتب الجامعى الحديث ، الإسكندرية 2012.

56- دور الحضارة الإسلامية فى حفظ تراث الحضارة اليونانية (5) ديسقوريدس ، إعادة اكتشاف لمؤلفات مفقودة : الطبعة الأولى ، المكتب الجامعى الحديث ، الإسكندرية 2012.

57- الطب النفسى فى الحضارة الإسلامية ، تأسيس وتنظير . : الطبعة الأولى ، المكتب الجامعى الحديث ، الإسكندرية 2011.

58- الجوانية ، دراسة فى فكر عثمان أمين :الطبعة الاولى, المكتب الجامعى الحديث,الاسكندرية2012